سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج
السيد محمد تقي المدرسي

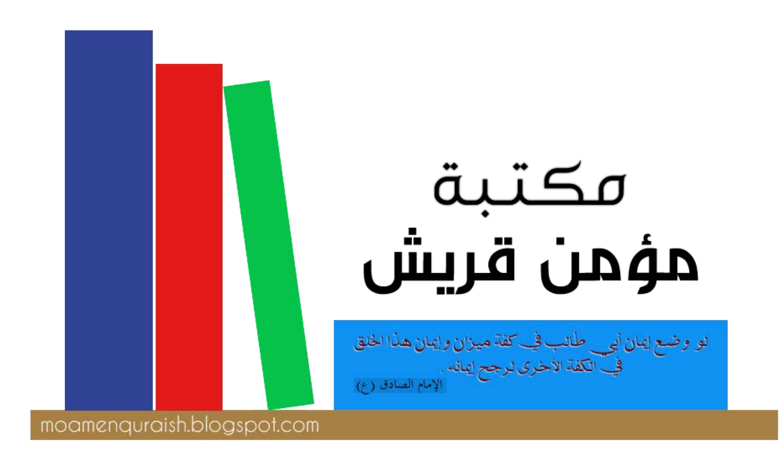
بينات من فقه القرآن

دراسةٌ قرآنيةٌ تعتمد استنباط السُّنن الإلهية من آيات الذكر الحكيم

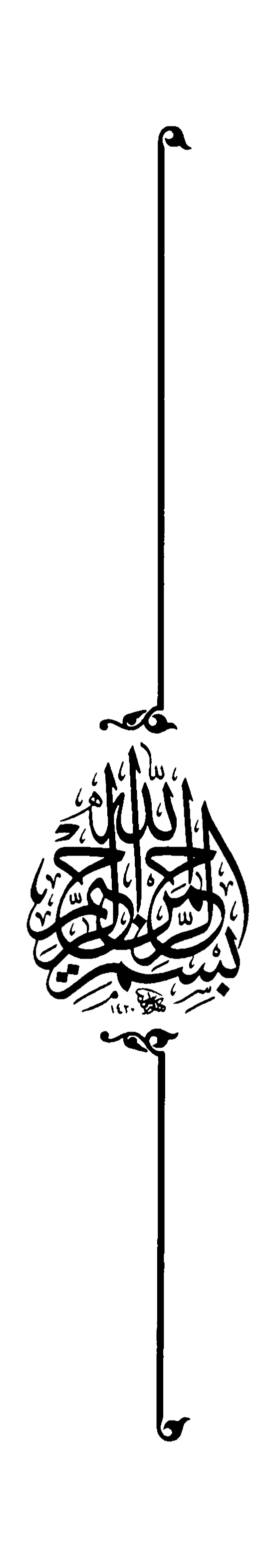
سُورة النُّـور



دار المحجة البيضاء


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com


بينات من فقه القرآن


بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٢٠

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج
السيد محمد تقي المدرسي



دراسةٌ قرآنيةٌ تعتمد استنباط السُّنن الإلهية من آيات الذكر الحكيم

سُورة النُّور

دار المحجة البيضاء

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ / ٢٠١١م

ISBN: 978-9953-567-85-3



الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمّال

ص.ب. ١٤/٥٤٧٩ ـ هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ ـ ٠١/٥٤١٢١١
تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ ـ E-mail almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)

الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣)

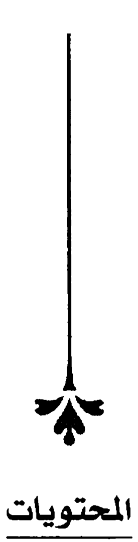
مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)

اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ (٦)

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعمتَ عَلَيهِمْ

غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ (٧)﴾



المحتويات



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْـدُ لله بِجَمِيعِ مَحَامِـدِهِ كُلِّهَا، عَلَى جَمِيعِ نِعَمِـهِ كُلِّهَا، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِهِ الْمُصْطَفَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الْأَتْقِيَاء.

وبعد:

كما وردة ذات ريحان فيها أوراق ذات عبق وجمال، كلما ضوعتها زادتك شذى وروعة. كذلك آيات الذكر: فكل آية هي قرآن، وهي ذات عصف وريحان، وهي ذات أوراق مطهرة.. فإذا نظرت إلى ظاهرها بهرك جمالها، وإذا تأملت باطنها زادتك علمًا، وكلما غُصْتَ في أعماقها بتدبرك وجدتها ذات أغوار، فيها المزيد من الدرر واللآئى.

من هنا فإن عجائب القرآن لا تنقضي، ولا يزداد على كثرة القراءة إلا جمالًا وروعة.

وقد وفقني الرب سبحانه، وبفضل أحاديث النبي ﷺ وأهل

بيته ﷺ، للتدبر في كتاب ربنا العزيز، وهكذا جعلته محور أحاديثي وبحوثي الفلسفية والأصولية والفقهية والاجتماعية والسياسية، وذلك على مدى أربعة عقود من الزمن.

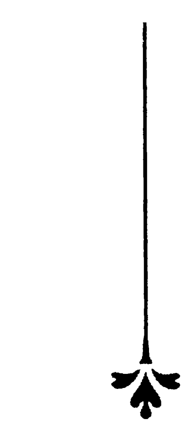
ولا زلت في الخطوة الأولى من طريق ممتد لا ينتهي، وأعتقد جازمًا أن المسافة بيننا وبين كتاب ربنا تتوسع، أوليس فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه، وعلينا أن نكدح إلى ربنا كدحًا لنلاقيه، وقد نقترب منه بفضله ولكن لن نصل إليه؛ لأننا نحن المخلوقون وهو ربنا تعالى الخالق.

وهكذا شرعت بعد عودتي إلى مدينة جدي الإمام الحسين عليه السلام بعد سقوط نظام الطاغية، بالتدبر في آيات الكتاب في محضر علماء البحث وبعد دراسة الفقه، وكان من بين السور المباركة التي تدبرت فيها سورة النور، وكذلك تدبرت في السورة ذاتها بمحضر علماء مدينة طهران في ليالي شهر رمضان المبارك، وكان من عظيم فضل الله عليَّ أن وفقني لتحرير تلك التأملات، وأرجو أن أكون قد وفقت لخدمة القرآن، ذلك الكتاب الذي هو الشافع المُشَفَّع يوم الجزاء. كل ذلك بأمل نوال شفاعتِه وشفاعةِ حاملِ مصباحِهِ وأهل بيته حملة علمه والله المستعان.

محمّد تقي المدرسي

كربلاء المقدسة

٩ جمادى الآخرة ١٤٣٠هـ



الهدف.. لكي نتذكّر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١)﴾.

* * *

تفصيل القول:

١ - ﴿سُورَةٌ﴾

بصائر القرآن محاطة بسور.

فما هو ذلك السور؟.

حدود كل شيء هدفه، ولأن هدف آيات الذكر التذكر. ألم يقل ربنا في عقبى الآية الأولى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؟؛ لذلك فإن ما في السورة مما يحقق هذا الهدف، يعتبر سورًا له. وكذلك كل علم هدفه سور له، لأن شتات المعلومات إنما يجمعها العالم ضمن سور واحد، لأنها تحقق هدفًا محددًا.

وهـذه البصـيرة تتصل ببحث تمايز العلـوم، أو أنه ليس ما يجمع شتات مسائل كل علم إلا هدفه.

وهـذا يتصل أيضًا بسـنن الله في خلقه، فشـتات حركات البشر تجمعهـا أهدافهـا. فأنـت كل يـوم تقـوم بشـتات الحركات، فـما الذي يجمعها ليس إلا هدفك منها.

٢ - ﴿أَنزَلْنَٰهَا﴾

كيـف تم الإنزال؟. فهل يعنـي أن جبرائيل عليه السلام ملك الوحي حملها من الأعلى إلى النبي صلى الله عليه وآله ليبلغ بها سـائر الناس، أم هناك معنى أعمق لكلمة الإنزال؟.

إن حقائـق العلم حقائق مطلقـة وعامة، وهي غير متيسرة لفهم عامـة البـشر، وإنما يَسَّر الله سـبحانه القرآن للذكر حتـى يتذكروا ويُتِم حجته عليهم بإنزالها. كيف؟.

أولًا: ببيان مصاديق الحقائق.

ثانيًا: بلسان عربي مبين.

ثالثًا: بالقصص والأمثال.

أولم يقل ربنا سبحانه:

- ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[1].
- ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾[2].
- ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾[3].

(١) سورة القمر، آية: ١٧.

(٢) سورة النحل، آية: ١٠٣.

(٣) سورة الفرقان، آية: ٣٣.

٣- ﴿وَفَرَضْنَـٰهَا﴾.

كيف تم فرض القرآن للذكر؟. هل بقوة السلاح، أم بعزم الرجال، أم بأيدي السماء، أم بالتوفيق والتسديد والنصرة، أم بماذا؟. لعله بكل ذلك، كيف؟.

أولًا: حينما تستجيب فئة من الناس لحقائق القرآن، فإنهم سوف يصبحون قوة مادية للدفاع عنها.

قال ربنا سبحانه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[1].

ثانيًا: وهؤلاء سوف ينتصرون لدين الله. فإذا فعلوا ذلك نصرهم الله سبحانه بتأييده.

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[3].

ثالثًا: إن سنن الله في خلقه تتناغم مع سننه في كتابه، وهي دومًا في عون أحكام الدين، لأنها -وسنن الله في الخليقة- ذات مسار واحد.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾[4].

---

(١) سورة الفتح، آية: ٢٩.
(٢) سورة محمد، آية: ٧.
(٣) سورة هود، آية: ٨٨.
(٤) سورة إبراهيم، آية: ١٩.

رابعًا: من الأحكام الشرعية ما هي حدود تُفْرَض بالحديد، مثل تنظيم الأسرة وحرمة الفواحش الجنسية.

خامسًا: التيار الاجتماعي الذي تصوغه بصائر الوحي يساهم في فرض أحكام الدين، ولعل ذلك كان سببًا في ورود هذه الكلمة (فرض) هنا في هذه السورة بالذات.

٤ - ﴿فِيهَآ ءَايَـٰتِۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾

الآية هي الحقيقة التي تهديك إلى حقائق أخرى. فالشمس والقمر آيتان، لأنهما حقيقتان تهديانا إلى سنن الله في خلقه وإلى أسمائه الحسنى.

كذلك ما ذكر في القرآن من حقائق تهدينا إلى ما وراءها من حقائق. فإذا أمرنا ربنا بجلد الزانية، فإن هذه حقيقة تهدينا إلى حقائق، مثل أهمية الأسرة وضرورة الحفاظ عليها.

ومن هنا فإن علينا عند تلاوة الآيات، أن نتأمل في آياته لعلنا نغور إلى تلك الحقائق التي وراءها. وبتعبير آخر؛ حتى نتذكر فنفقه ما وراءها من سنن راسخة في خلق الله.

ألم يقل ربنا سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[1].

والآيات ليست آيات غامضة، إنها بينة، وهي كذلك مبيِّنة. أما أنها بينة فلأنها نازلة بلغة واضحة، وأما أنها مبينة فلأنها تعكس الحقائق التي وراءها.

---

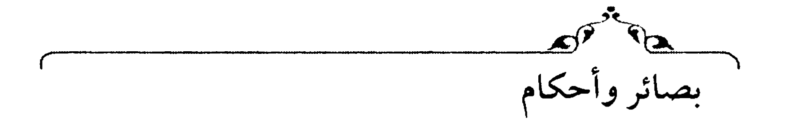
(١) سورة محمد، آية: ٢٤.

٤- ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

إذا كان هدف السورة الكريمة -كما سبق- رفع مستوى الانسان إلى مرحلة التذكرة، فإن علينا أن نتساءل: ما هي التذكرة؟.

التذكرة: هي استرجاع المعلومات المنسية أو المغفول عنها. ولكن لا يتم ذلك بسهولة، إذ إنها بحاجة إلى الاستماع الجيد، وإلى التفكر الحر، وإلى الموضوعية في المنهج. وهكذا تجد قليلًا من الناس هم الذين يتذكرون.. قال الله سبحانه: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾[1].





بصائر وأحكام

١- سور كل علم هدفه، وتمايز العلوم عن بعضها بأهدافها.

٢- الأهداف تجمع شتات حركات البشر.

٣- ولقد يسر ربنا القرآن للناس ليتذكروا به ببيان مصاديق الحقائق، وبالقصص والأمثال وأنزلها بلسان عربي مبين.

٤- أيد الله رسالاته وفرضها بـ:

أولًا: المؤمنون نصروا الدين فنصرهم الله، ونصر الدين بهم.

ثانيًا: دين الله حق، وسنن الله في خلقه حق، والله يؤيد دينه بتلك السنن.

(١) سورة الحاقة، آية: ١٢.

ثالثًا: بعض أحكام الدين -مثل الحدود- تفرض بالحديد.

رابعًا: التيار الاجتماعي الذي تصوغه شرائع الدين قد يساهم في فرض أحكامه.

٥- آيات القرآن بينة لأنها نزلت بلسان مبين، وهي مبيّنة لأنها تعكس الحقائق.

٦- إنما التذكر بالاستماع الواعي والتفكر الحر والمنهج السليم.

» التيار الاجتماعي الذي تصوغه بصائر الوحي يساهم في فرض أحكام الدين، ولعل ذلك كان سببًا في ورود هذه الكلمة (فرض) هنا في هذه السورة بالذات.

٧- العلم الذي لا ينفعك لغو، استعذ بالله منه. إن حياتك قصيرة، ولن تبلغ فيها إلى كل علم. وإنك -في الوقت ذاته- بحاجة إلى علم فيما يرتبط بأعمالك، فخذ من العلم ما يتصل بحاجتك العملية.

٨- تصور مثلثًا يُشكل فكرك زاوية منه، بينما تشكل الكائنات زاوية ثانية، أما الزاوية الثالثة فهي تلك الآيات القرآنية التي نتلوها. وحاول -أبدًا- اكتشاف الرابطة بين زوايا هذا المثلث؛ أنت والحياة والآية. بذلك سوف تبلغ -بإذن الله- درجة التذكر، وهي درجة بالغة الأهمية، رفيعة المستوى، إن شاء الله.



لماذا الحدود الشرعية؟

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾

* * *

تفصيل القول:

١ - ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى ﴾

الزنا علاقة غير شرعية بين الأنثى والذكر، وعادة ما تكون ذات طرفين؛ فالزانية ترتبط بالزاني، وهكذا العكس.

بلى؛ قد يكون أحد الطرفين مكرهًا أو مستغفلًا، وهو فرض نادر الوقوع. والسؤال: ماذا تعني العلاقة غير الشرعية، ولماذا تقدم ذكر الزانية؟.

أولًا: لأن الله خلق بني آدم ليعيشوا مجتمعين، فإن ذلك يعني وجود قواعد تضبط علاقاتهم ببعضهم، ومن تلك القواعد، بل من أهمها، علاقة الذكران بالإناث. فكيف تكون هذه العلاقة؟.

الشرع ينظمها لنا، وكل قوم ينظمون نكاحًا حسب عاداتهم. أما الشاذ من هذه القواعد فهو محكوم بالخروج من النظام الاجتماعي المعترف به، وهذا بعينه الزنا.

ثانيًا: عادة ما تكون المرأة بإغرائها وإثارتها وعدم تحفظها لنفسها، تكون محور هذه العلاقة الشاذة؛ فهي التي يجب أن تدافع عن شرفها بكل وسيلة ممكنة، أولها صيانة نفسها وعدم تبذلها. ومن هنا فإن الحجاب مفروض عليها دون الرجل. وهذا لا يعني براءة الذكر من إثم هذه الجريمة، فهو الآخر زانٍ. وهكذا نعرف أن تجريم شخص على فعل لا يُبَرِّئ شريكه فيه، بل كل مسؤول عن فعله ولوكان الفعل واحدًا.

٢- ﴿فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾

لماذا كان المؤمنون جميعًا طرفًا لخطاب القرآن، ولماذا الجلد على هذه الخطيئة، ولماذا -أخيرًا- مئة جلدة؟.

أولًا: المؤمنون هم أبناء المجتمع الذين سوف يتضررون من الزنا، لأنه مخالفة لقواعد سلوكهم، ولأنه يزعزع أساس الأسرة التي هي محور علاقاتهم.. ومن هنا فعليهم جميعًا الدفاع عن مصالحهم، وذلك بمعاقبة المتمردين.

ثانيًا: الجلد عقوبة جسدية تكفي لردع الذين تغلبهم شهوات جسدهم. فكما أن اللذة ساقتهم إلى الجريمة، فإن الألم يكون جزاءً مناسبًا لها.

ثالثًا: أما المئة جلدة، فإن هذا العدد يتناسب وامتداد لذة الجنس لفترة بما لها من تمهيدات، وما لها من معقبات.

٣- ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾

أليس الإسلام دين الرحمة، أوليس الله خلق البشر عاطفيًّا يرأف بعضهم ببعض، فلماذا القرآن منعنا من الرأفة بالزانية والزاني؟.

أولًا: الرأفة تهدف إصلاح العلاقات الاجتماعية، ليزداد الناس تماسكًا. أما الذين يفسدون هذه العلاقات باختراق قواعدها، فإن الرأفة بهم تزيدهم غيًّا وفسادًا.

ثانيًا: دين الله نظام متكامل يورث البشر فلاحًا، وفي هذا النظام قد حددت مواطن الرحمة والرأفة ومواطن الحزم والغلظة. ولا يجوز أن نستبدل هذه المواطن بتلك، لأنه سوف يكون بعيدًا عن الحكمة.

٤- ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾

ما هي الصلة بين العقائد الدينية ومن أبرزها التوحيد والعدل، وهذه الأحكام؟.

أولًا: الإيمان بالله سبحانه، إيمان بمنظومة البصائر التي توحي بها أسماء الله. فهو تعالى العدل الذي لا يجور، وهو الرؤوف الرحيم، وهو الحكيم العليم.. ومن آمن بهذه الأسماء، كيف يتحدى أحكام الرب التي هي تعبير عن أسمائه الحسنى؟.

ثانيًا: الإيمان باليوم الآخر، حيث الميزان الحق، وحيث الحساب الدقيق، لا يناسبه الرأفة في دين الله.

وبكلمة؛ المؤمن ينظر إلى كل الحقائق من منظار بصائره المستوحاة من الإيمان؛ فرحمته ورأفته ومواقفه جميعًا تتأطر بإيمانه الراسخ بالله وصفاته وأسمائه وإيمانه بيوم الحساب وما فيه من ميزان حق.

٥- ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

لماذا يشهد الناس ألم الزانية والزاني، وهل شهدوا لذتهما السرية حتى يشهدوا عذابهما؟.

أولًا: لأن من أهداف الحدود الشرعية (الجلد هنا مثلًا) إصلاح المجتمع وتحصينه من حيث الشاذين. وعندما يشهد الناس مدى تألم الجناة بالعذاب، فإنهم يرتدعون عن ارتكاب الجريمة.

ثانيًا: إن في مشاهدة الجاني وهو يعذب، عذابًا نفسيًّا له، وقد يكون ذلك أشد إيلامًا من العذاب الجسدي.

ثالثًا: إن جريمة الزنا تتم عادة بسرية وبعيدًا عن رقابة المجتمع، بينما النكاح يتم بعلنية وتحت سمع وبصر المجتمع وفي ظلال رقابته. ولأن تنظيم العلاقة بين الذكر والأنثى ليس شأنًا خاصًا لهما، بل له علاقة مع المجتمع الذي لا بد أن يعترف به ويراقب الحقوق المتبادلة بين الطرفين ثم يعترف بأبنائهم وما أشبه، فإن الشرع يأمر بإخراج ما أخفاه الجناة إلى العلن ليكون أبدًا في الضوء وبلا سرية. وهكذا أمر الإسلام بضرورة وجود شاهدي طلاق، بينما ندب الشهادة عند النكاح.

وقد روي عن رسول الله ﷺ «أَنَّهُ مَرَّ بِبَنِي زُرَيْقٍ فَسَمِعَ عَزْفًا فَقَالَ ﷺ: **مَا هَذَا؟**.

قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، نَكَحَ فُلَانٌ!.

فَقَالَ ﷺ: **كَمَلَ دِينُهُ. هَذَا النِّكَاحُ لَا السِّفَاحُ، وَلَا يَكُونُ نِكَاحٌ فِي السِّرِّ حَتَّى يُرَى دُخَانٌ أَوْ يُسْمَعَ حِسُّ دَفٍّ!.**

وَقَالَ ﷺ: **الْفَرْقُ مَا بَيْنَ النِّكَاحِ وَالسِّفَاحِ ضَرْبُ الدَّفِّ**»[1].

وفي هذا إشارة إلى أن النكاح يتم تحت سمع وبصر المجتمع، ولذلك فهو علاقة شرعية معترف بها دون الآخر.

* * *

بصائر وأحكام

١- المجتمع كيان متصلة أطرافه ببعضها، ولا يجوز أن يتهاون أحد من أبنائه في شأن من شؤونه. من هنا شرع الدين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهكذا يجب على المجتمع فيما يتصل بتنظيم العلاقة بين الجنسين رعاية سلامة الأجواء من آفات السفاح والشذوذ والتفسخ.. ومن كل ما قد يؤثر سلبًا في سلامة المجتمع الخُلُقية.

قال الله سبحانه: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2].

---

(١) مستدرك الوسائل: ج١٤، ص٣٠٥.

(٢) سورة التوبة، آية: ٧١.

٢- على المؤمن أن يضبط خلجات قلبه، كما يضبط حركات سلوكه. فالمؤمن يحب في الله، ويبغض في الله، ويجعل قلبه تابعًا لمرضاة ربه.

قال الله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2].

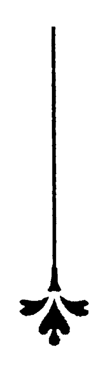
٣- الإسلام نظام متكامل ويؤدي كل من الرأفة والشهوة موطنًا مناسبًا فيه، ولا يجوز استبدال إحداهما بالأخرى.

٤- الإيمان بالله التصديق بأسمائه الحسنى التي تعكسها أحكام الدين، فلا يُحادَّها المؤمن بالله واليوم الآخر.

» المجتمع كيان متصلة أطرافه ببعضها، ولا يجوز أن يتهاون أحد من أبنائه في شأن من شؤونه. من هنا شرع الدين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(١) سورة البقرة، آية: ١٦٥.

(٢) سورة المائدة، آية: ٥٤.



التجاذب في الخليقة

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾

* * *

تفصيل القول:

١ - ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾

هل النكاح هو الزواج، أم أنه هنا تعبير عن الممارسة الجنسية ذاتها؟. وهل الآية في معرض بيان حكم شرعي، أم سنة إلهية؟.

أولًا: قال البعض: إن كلمة النكاح تحتمل أكثر من معنى، فهو تعبير عن العلاقة المستمرة، سواءً المشروعة كالزواج أو غير المشروعة، كما قال سبحانه: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ﴾[1]؛ أي القدرة

(١) سورة النساء، آية: ٦.

الجنسية. وهكذا تعني الآية: أن الزنا فاحشة لا يقدم عليها إلا كل سافل. وهكذا فإن المؤمنين مترفعون عنها، ولا يرغب أحدهم أن ينام مع سافلة.

ثانيًا: إن التناغم بين أي شخصين من جنس واحد أو من جنسين ليس فقط بسبب بعض الصفات الظاهرة، مثل الجاذبية الجنسية أو الجمال الظاهر، بل إنه يغور في الأعماق، حيث إنه متصل بالصفات النفسية والعادات السلوكية.

وهكذا فإن الزاني الذي تردى إلى حضيض الشهوة الرخيصة، بعيدًا عن جمال الروح وجاذبية السلوك، إنه يفتش عن شريكة مشابهة له. وهكذا لا يجد مثل ذلك إلا زانية أو مشركة.

وقد قال ربنا سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[2].

وقد قالت العرب: إن الطيور على أشكالها تقع.

ثالثًا: إن الرغبات النفسية انعكاس لطبيعة الناس، كما أن السلوك تعبير عن نمط التفكير ونمط الشخصية، وقد قال ربنا سبحانه: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾[3].

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٧٣.

(٢) سورة النور، آية: ٢٦.

(٣) سورة الإسراء، آية: ٨٤.

ومن هنا، فمن وجد في نفسه رغبة الشذوذ عن السبيل اللاحب، فعليه ليس فقط كبح جماح نفسه، وإنما السعي جاهدًا لإصلاحها، وليعلم أن قلبه لا يزال فارغًا عن الإيمان الصادق.

رابعًا: إن من يختار زوجة لتكون شريكة حياته وأمًّا لأبنائه وعونًا له على أمور دينه ودنياه، فعليه أن يختار المرأة الصالحة، ولا يبحث عن خضراء الدمن، حيث النفايات القذرة، حتى ولو أعجبه حسنها.

وهكذا نهى ربنا عن اختيار الساقطات، إذ قال سبحانه: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[1].

٢- ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ﴾

أليست هذه القضية عكس تلك تمامًا، فلماذا تكرر القول؟.

أولًا: لمزيد من التأكيد. أليست هذه قضية مهمة؟.

ثانيًا: إن هناك شخصين؛ فالزاني لا يرغب إلا في امرأة تتناسب معه كالزانية والمشركة. كما أن الزانية لا يرغب فيها إلا شخص متناسب معها، مثل الزاني والمشرك.

وهكذا كان على المؤمن أن ينأى بنفسه عن الزانية والمشركة، وعلى المؤمنة أن تتجنب الزاني والمشرك.

(١) سورة البقرة، آية: ٢٢١.

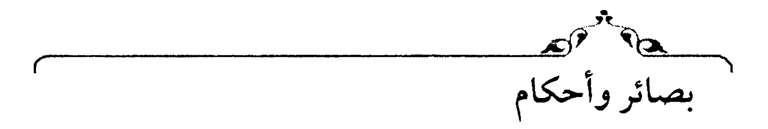
٣- ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

هل هذا مجرد تحريم تشريعي أو إنه تعبير عن سنة إلهية؟.

أولًا: فعلًا إنه تحريم تشريعي، فلا يجوز للمؤمن أن يقترن مع امرأة فاحشة إلا إذا تابت إلى الله متابًا.

ثانيًا: إن الكثير من الزيجات توفيقات ربانية، وربنا سبحانه يوفق الصالحين للصالحات، وبالعكس، وإنه فضل من الله عظيم.





بصائر وأحكام

١- الزنا فاحشة لا يقدم عليها إلَّا كل سافل.

٢- إن التناغم بين كل شخصين يغور إلى حيث السلوك والصفات النفسية.

٣- إن من أبرز ما يتميز به المجتمع الإيماني، نقاؤه. ومن وسائل النقاء، اجتناب العناصر الجنسيّة. وقد وردت روايات مستفيضة تؤكد ضرورة الإنجاب الصالح، حيث جاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**تَخَيَّرُوا لِنُطَفِكُمْ فَإِنَّ الْعِرْقَ دَسَّاسٌ**»[1].

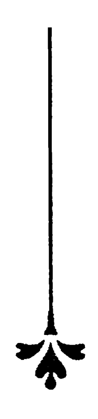
وإنه لمعروف جدًّا مدى تأثير التوافق الاجتماعي في بلورة شخصية الإنسان. فإذا كان المجتمع المسلم نقيًّا وبعيدًا عن الفسقة، فإن

(١) المحجّة البيضاء: ج ٣، ص ٩٣.

ذلك يساهم في تنمية جيل صالح بعيد عن مؤثرات المجتمع الفاسد.

وبالرغم من أن الزواج من أكثر المؤثرات في بناء المجتمع، لأنه يتصل بتشكيل الأسرة، إلا أنه ليس المجال الوحيد الذي شملته مفاهيم الدين، بل حتى في انتخاب الصديق والمعلم وإمام الجماعة والجار وكل من يشترك مع الفرد في حياته، قد جاءت تعاليم واضحة وشديدة التأكيد لضرورة انتخاب الأفضل.

» إن من يختار زوجة لتكون شريكة حياته وأمًا لأبنائه وعونًا له على أمور دينه ودنياه، فعليه أن يختار المرأة الصالحة، ولا يبحث عن خضراء الدمن..



الأسرة أساس المجتمع

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾

* * *

تفصيل القول:

١ - ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ﴾

كما الحجر مادة البناء، كذلك الأسرة أساس بنيان المجتمع، وإذا انهارت الأسرة فإن المجتمع ينهار هو الآخر. ومن هنا فقد حصنها الدين بأكثر من سور. فبعد أن عاقب على الزنا، وطرد الزناة من المجتمع الإيماني، ضرب بسور رفيع آخر، حيث منع النفوس الخبيثة والألسن البذيئة من تناول المحصنات في قلعة الأسرة، واعتبر مجرد تناول أسمائهن بالسوء عملًا شائنًا إلا بشهود أربعة. لماذا؟. للأسباب التالية:

أولًا: إن السمعة الطيبة هي رأسمال المرأة الفاضلة، وإن تناولها بالتهم الرخيصة يخل بذلك الشرف.

ثانيًا: إن الذنب يرتكب في إطار النفس أولًا وقبل أن يرتكب في الخارج. وإذا أميت ذكر الذنب لم يفكر فيه أحد. وإن من كيد الشيطان هو تهوين الذنوب عند الناس، حتى لا يتورعوا منها، وذلك بتكرار ذكرها وإشاعة قصص مرتكبيها، حتى تهون عند الناس.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

ثالثًا: قد يفتش المحرومون جنسيًّا عن مادة مثيرة، حتى يسلوا بها أنفسهم. وربما أصبحت القصص الخيالية التي تتناول المحصنات وسيلة للإثارة، مما يجعلها سريعة الانتشار في أوساط الشبيبة. إذًا لا بد من حسم مادة الجريمة سلفًا، بمنع ذلك وعدم السماح للألسنة الخبيثة بأن تلوك سمعة المحصنات.

٢- ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾

الشاهد ليس الذي سمع الواقعة، وإنما الذي رآها وبكل وضوح، ومستعد تحمُّل المسؤولية بشهادته أمام القضاء. ولا بد من توافر أربعة من هذه الفئة للشهادة على تهمة جنسية. وإذا عرفنا أن مرتكبها يحاول دائمًا إخفاءها، ليس فقط لأن العملية الجنسية ذاتها من خصوصيات الأفراد، بل وأيضًا لأنها -عند عدم مشروعيتها- يكون إخفاؤها أهم عند مرتكبها، نعرف مدى صعوبة توفير أربعة متوافقين في الشهادة عليها.

(١) سورة النور، آية: ١٩.

والسؤال: لماذا طالب الشرع بأربعة شهداء، بينما في أمور أخرى أهم (مثل جريمة القتل) اكتفى بشاهدين؟.

أولًا: إن الجنس ليس حدثًا ثابتًا كالقتل، بل هو حدث عابر. إذًا من الممكن جدًّا ادِّعاء وقوعه وبسرية، مما يجعله أسهل عند ملفقي التهمة، وأيسر قبولًا عند الناس، لذلك فإن مطالبتهم بأربعة شهداء يجعلهم يتورعون جدًّا من تلفيق التهمة، وإشاعتها بلا تأكد من وقوع الحادثة.

ثانيًا: مجرد ادِّعاء رؤية أربعة شهداء لحادثة من هذا القبيل أمر صعب جدًّا. فأين كان هؤلاء من مسرح العملية، وهي من أشد الأفعال مدعاة للإخفاء؟ هل يعقل أنهم كانوا في غرفة نوم الممارسين للجنس الحرام، أم أن الممارسة تمت في الفضاء المفتوح، ولماذا؟.

ومن ناحية أخرى، لو افترضنا أن الأربعة قد تآمروا لشهادة الزور، فإن تواطؤهم على كافة التفاصيل يبدو شبه مستحيل.

٣- ﴿فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ﴾

إذا كانت لذة الجنس اقتضت جلد الزاني، فماهي تلك اللذة التي تقتضي جلد القاذف؟.

أولًا: باعتبار أن تهمة الجنس قريبة من الجنس ذاته، فقد اقتضت هذه التهمة العقاب ذاته.

ثانيًا: فعلًا إن مرضى النفوس يتلذذون جنسيًّا بمثل هذه التهم الرخيصة التي يسيل لها لعابهم، وذلك بتخيل تفاصيل الممارسة الجنسية، ولذلك فإن عقابهم بالجلد مناسب جدًّا لتلك اللذة الحرام التي أثاروا بها غرائزهم الجنسية وأيضًا أشبعوا بها عقدهم النفسية.

٤ - ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾

كما أن الزاني والزانية طُردا من المجتمع الإيماني ولحقهم العار، كذلك القاذف تلاحقه لعنة قذفه بطرده من المجتمع المؤمن، حيث لا تُقبل شهادته أبدًا إلا إذا تاب.

وهكذا فإن تقادم الزمان لا يغسل ذنبه.

٥ - ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

الفسق هو الخروج من الإطار الشرعي مما يُعرِّض الفرد للفساد، تمامًا كما إذا خرجت الثمرة عن جلدها وتعرضت للفساد. فما مناسبة ذلك مع القاذف؟.

أولًا: عندما يصبح الكلام رخيصًا، والتهمة شائعة، فإن هيبة المجتمع تتبخر، واحترام الناس لبعضهم يتلاشى، والعلاقة تصبح جد صعبة.

وهكذا يكون مثل المجتمع مثل تلك الثمرة التي خلعت إهابها ففسقت وفسدت.

ثانيًا: إذا كانت الكلمة غير مسؤولة، فإن كثيرًا من وساوس الشيطان تتراءى وكأنها حقائق مسلمة؛ فلا يُعْرَف الحق من الباطل، والصدق من الكذب. لذلك وضع الإسلام حدًّا صارمًا بين العدالة والفسق، بين الصدق والكذب.

فإذا كانت الكلمة معتمدة على حقائق تصدقها (شهود أربعة) فإنها صادقة، وإلا فهي مجرد وساوس شيطانية تخدع الناس.

* * *

بصائر وأحكام

١- الأسرة أساس بنيان المجتمع، والقاذف يزعزع هذا الأساس.

٢- إشاعة الذنوب يُهَوِّنها الشيطان عند الناس.

٣- من تلذذ بإشاعة القذف عوقب بثمانين جلدة.

٤- القاذف يطرد من المجتمع الإيماني ويُنعت بالفسق.

» إذا كانت الكلمة غير مسؤولة، فإن كثيرًا من وساوس الشيطان تتراءى وكأنها حقائق مسلمة؛ فلا يُعْرَف الحق من الباطل، والصدق من الكذب.



هكذا التوبة تستنزل الرحمة

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

* * *

تفصيل القول:

١ - ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾

بالرغم من خطورة الذنب، وفظاعة آثاره الاجتماعية، تطوي التوبة صفحته وتغسل عاره وشناره. كيف؟.

أولًا: كما أن الذنب انحراف كبير، فإن التوبة عمل جبار، وصاحبها إنسان في منتهى الشجاعة الأدبية، وإنه ليقوم بثورة عارمة ضد تاريخه وضد أهوائه.

ثانيًا: إذا تأملت في حياة المجتمع، وبالذات في حياة الفسقة فيه، تجد أن نسبة التائبين ضئيلة جدًّا. مما يجعل من يتوب يقوم بعمل خطير،

وهـو يصبح عبرة لمن يختار التمادي في غيه، وعبرة لمن يفكر في ارتكاب الذنب، فإن ذل الاعتراف بالخطأ لا يوازيه إلا فضيلة التوبة.

٢ - ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾

ولماذا الإصلاح بعد التوبة؟.

أولًا: لأن الذنب قد أحدث ثلمة كبيرة في جدار الوحدة الاجتماعية، وعلى من ارتكب الذنب أن يعالجه بشتى الوسائل الممكنة.

مثلًا؛ حينما يُشيع جاهل تهمة القذف ضد بريء، ويتأثر كثير من الناس بشائعته، فكم نحن بحاجة إلى عمل حتى نسترجع هيبة الفرد الضحية وسمعته التي بلغت الحضيض!.

ثانيًا: قد يحتاج الإصلاح إلى بذل مال أو جهد أو حتى جاه، ولكنه ضروري، ليس فقط بهدف تعويض الضحية، بل وأيضًا من أجل تزكية نفس الجاني وتطهيرها من آثار الذنب.

٣ - ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

ماذا تعني هذه الخاتمة، التي تفيض أملًا؟.

أولًا: إن الآية قد أوردت اسمي الرأفة للتذكرة، فإن الله سبحانه يغفر الذنب ويرحم المذنب ربما بالمزيد من فضله، ذلك لأن التائب من الذنب قد يُصبح محصنًا ضد ذلك الذنب وضد ذنوب أخرى لما عاناه بعد الذنب من وخز الضمير، ومن جُهْد في سبيل التوبة والإصلاح، فيصبح أهلًا لرحمة ربه.

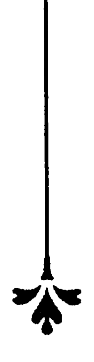
ثانيًا: الآية لم تحتم على الله سبحانه قبول توبة هذا الانسان، مما

يجعله أبدًا بين تياري الخوف والرجاء، فيزداد نشاطًا في عمل الصالحات وفي الاستغفار.

* * *

بصائر وأحكام

* التوبة تعهد مع الذات وفضيلة التوبة تفوق انحراف الذنب.



أثر العقوبات في تحصين الأسرة

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾

* * *

تفصيل القول:

١ - ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ ﴾

علاقة الزوجين ببعضهما ذات سعة وعمق وامتداد قد لا ترقى إلى مستواها أية علاقة بشرية، لأنها علاقة ذات أبعاد مختلفة؛ جسدية (فورة الجنس) ونفسية (حب متبادل) ودينية، وذات أهداف بعيدة في إنجاب ذرية وتربيتهم. ولذلك فهي عادة لا تهتز بسهولة في ظل تعاليم الإسلام. أما إذا تردت وأصبحت عرضة للتهم الرخيصة كالطعن في الشرف، فإن استمرارها يكون صعبًا وربما يصبح ضارًا.

من هنا فإن السياق القرآني ذكَّر بمشكلة قذف الزوج لامرأته،

وبقـدر من التفصيل، لأن الزوج أول المعنيين بمثل هذه المشـكلة؛ فإذا كان صادقًـا، فـأي حصـن زوجية هذا الـذي يخترقه الزنـا؟. وإذا كان كاذبًـا، فـأي زوج هـذا الـذي يطعـن زوجتـه في شرفها؟. إما سـفاهة أوخبثًا؛ وسواءً هذا أوذاك، فإنه لا يصلح زوجًا وربًّا لأسرة فاضلة.

٢- ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

لماذا هذه الشهادات؟.

أولًا: لأن الـزوج إذا كان لاهيًـا أو سـفيهًا أو مـضرًّا بزوجتـه، فسوف يدفع ثمنًا غاليًا، إما بتحمل وزر يمين كاذبة ثم خسران زوجته إلى الأبد، وربما إذا نكل عن اليمين يتعرض لعقوبة الجلد.

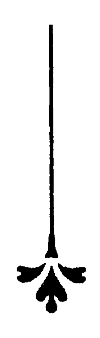
ثانيًا: إذا كان الزوج صادقًا، وقد شـاهد مثلًا ما جرى بين زوجته والأجنبي، فإنه لن يستطيع أن يأتي بأربعة شهداء على الجريمة، فهل يصبر عـلى زوجة خائنة أو يتعرض لعقوبة القذف أو يتصرف شـخصيًّا في ردع الجاني أو زوجته؟. كل هذه الفروض غير صحيحة، فلا بد إذًا من مخرج، وأفضلـه أن يشـهد أربع شـهادات بصدقه، حتى يوازي الشـهود الأربعة على الزنا، وحتى تستمر إجراءات التفريق بينه وبين زوجته.





بصائر وأحكام

* حصن الأسرة حدود دينية وحب متبادل وغرائز شديدة.



الأسرة كيان ميمون

﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧﴾

* * *

تفصيل القول:

لماذا اللعنة؟.

وهي البعد عن رحمة الرب؟.

أولًا: لأن هدم بنيان الأسرة وما يتبعه من ضياع الأبناء، وشقاق الأسر المتصلة، ونزاعات في الحقوق المتبادلة.. كل ذلك ليس بالأمر الهيِّن.

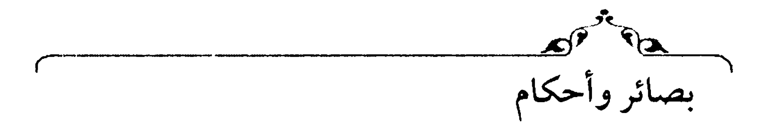
أليس الشرع قد اشترط وجود شاهدين عدلين في الطلاق، بينما جعله في النكاح أمرًا مستحبًا؟.

من هنا كانت اللعنة على الذات من قبل القاذف أمرًا ضروريًّا

لردعه عن توجيهه هذه التهمة جزافًا ومن دون التثبت التام.

ثانيًـا: إن وجـود هـذه الأحكام المتشـددة يشـد بنـاء الأسرة في ثقافـة الأمة، كما في وعي أبنائها، ويرفع الأسرة إلى مسـتوى قريب من التقديس حتى لا يقترب أحد من المسّ بها.





بصائر وأحكام

* الأحـكام الشـديدة ترسـخ بنيـان الأسرة وتجعلهـا قريبة من القداسة.



الشهادة في اللعان

﴿ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٨﴾ ﴾

* * *

تفصيل القول:

العدالة الإسلامية لا تدع المرأة ضحية قذف زوجها، وطعنها في شرفها، وذلك:

أولًا: بأن أمام المرأة واحدًا من خيارين صعبين:

الأول: الاعتراف بالجريمة، مما يعرضها للإعدام رجمًا، وربما -في بعض الأحيان- للجلد.

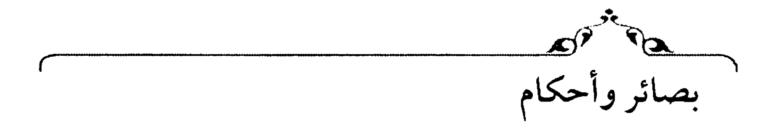
الثاني: تكذيب الزوج وردّ أيمانها الأربع بمثلها، فتدفع عن نفسها العذاب.

وهكـذا، مـا دامت الزوجية شراكـة بين اثنين، فـإن لكل واحد منهما من الحقوق والواجبات ما للآخر.

وهذه سنة الحياة وعدالة أحكام الدين، ألَّا يتمايز أحدٍ على الآخر في الحقوق والواجبات إلا في ظروف خاصة.

ثانيًا: والشهادات هنا أيضًا توازي شهود الزنا، لخطورتها ومدى تأثيرها في المجتمع إذا اهتزت تحت وقع التهم الرخيصة.





بصائر وأحكام

١- الزوجيـة شراكـة ولـكل طـرف مـا للآخـر مـن الحقـوق والواجبات.

٢- الشهادات في اللعان بعدد الشهداء في الزنا لمدى تأثير التهمة الكاذبة في بنيان الأسرة.



الانتخاب الصعب

﴿ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩ ﴾

* * *

تفصيل القول:

مرة أخرى جاءت كلمة الغضب لتوازي كلمة اللعنة، لماذا؟.

أولًا: إن حجم الجريمة كبير جدًّا، والاختيار جدُّ صعب بين التعرض للرجم أو تفكك الأسرة باللعان، وهو الاسم الذي اختير لمثل هذه الحالة.

ولذلك استدعى الحال استثارة وجدان المرأة واستنفار كل ما لديها من حس ديني ووعي إيماني، حتى تدعو على نفسها بنزول غضب الله عليها إن كانت كاذبة، وكان زوجها صادقًا في قذفها.

ثانيًا: يبدو أن اللعنة هي الإبعاد عن رحمة الله، بينما الغضب

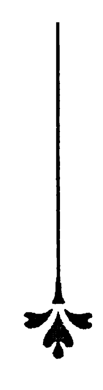
نزول العذاب. لماذا؟.

لأن المرأة هي محور الحديث، فهي التي قد زنت حسب التهمة.. أو هي بريئة وهي أعرف بوضعها. ولذلك كان من المناسب أن تدرأ عن نفسها التهمة بأقسى الكلمات.

* * *

بصائر وأحكام

* لأن الجريمة كبيرة والانتخاب صعب، جاء القسم بأقسى الكلمات.



إن الله توابٌ حكيم

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾

* * *

تفصيل القول:

١ - ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾

ماذا ستصبح حياتنا من دون فضل الله ورحمته؟.

أولًا: الذنوب التي يرتكبها العباد، بمثابة شهب تحيط بنا. ورحمة الله وفضله، بمثابة الغلاف الجوي، الذي يردعها عنا. ولولا رحمة الله لصب علينا العذاب بذنوبنا صبًّا.

هكذا يقول ربنا سبحانه: ﴿ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾[1].

(١) سورة النحل، آية: ٦١.

وقال عزّ وجلّ: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾(1).

وإنك لتقرأ في الأدعية المأثورة: «**اللّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتي تُنْزِلُ النِّقَمَ، اللّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتي تُغَيِّرُ النِّعَمَ، اللّهُمَّ اغْفِرْ لي الذُّنُوبَ الَّتي تَحْبِسُ الدُّعاءَ، اللّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتي تُنْزِلُ الْبَلاءَ**»(2).

ثانيًا: من الناحية الأدبية، حينما يحذف المتعلق، فإن المتلقي للخطاب يحلق بخياله في كل أفق. وهكذا هنا، حينما لم يذكر السياق جواب ﴿لَوۡلَا﴾ جعلنا نتخيل كل مكروه، وهو كذلك. فإن فضل الله ورحمته هما ينبوع كل خير، ولولاهما لشقي الجميع.

٢ - ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾

إنه تواب وإنه حكيم، فما هي الصلة بين هذين الاسمين الكريمين لربنا الرحمن؟.

أولًا: إنه تواب. فكلما عاد العبد إلى المعصية ثم تاب، تاب الله عليه.. وفي الدعاء: «**يَا وَيْلَتَا كُلَّمَا كَبِرَتْ سِنِّي كَثُرَتْ مَعَاصِيَّ، فَكَمْ ذَا أَتُوبُ وَكَمْ ذَا أَعُودُ مَا آنَ لِي أَنْ أَسْتَحْيِيَ مِنْ رَبِّي؟**»(3).

وهذه التوبة هي التي جعلت حياة الناس مطمئنة بالرغم من تماديهم في الغي.

ثانيًا: إن هذه التوبة محاطة بهالة من الحكمة البالغة. فهو سبحانه

---

(1) سورة الشورى، آية: ٣٠.

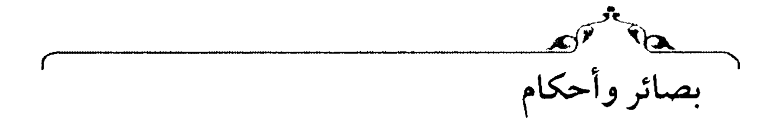
(2) مفاتيح الجنان، دعاء كميل بن زياد المروي عن أمير المؤمنين عليه السلام.

(3) بحار الأنوار: ج٨٤، ص٢٤٢.

لا يؤاخـذ أهل الأرض بألوان العذاب، ولكنه أيضًا لم يتركهم سـدى، بل إنه يتوب عليهم إذا تابوا، ويؤخرهم إن لم يتوبوا ليوم تشـخص فيه الأبصار.

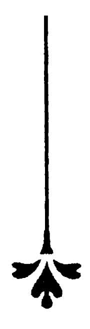
وقصـة الإفـك التـي سـوف تقـرأ إن شـاء الله ومارافقتهـا من حوادث، تعكس اسميّ التوبة والحكمة للرب تعالى.





بصائر وأحكام

* الله تواب، فكلما عاد العبد إلى المعصية ثم تاب، وجد الله توابًا رحيمًا.



واقعة الإفك دروس وعبر

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۚ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (11)﴾

* * *

تفصيل القول:

١ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ﴾

قصة الإفك في تاريخ النبي ﷺ ذات عبر شتى، وأبرزها ما يلي:

أولًا: الإفك -فيما يبدو- تلك الكذبة المحبوكة التي تصوغها فئة مخالفة للنظام السياسي أو الاجتماعي في الأمة. إنها مؤامرة تُدَبَّر بليل وتهدف زعزعة استقرار البلاد.

ثانيًا: العصابة التي اختلقت الإفك لم تكن أجنبية، بل كانت داخلية؛ فهي إذًا تعكس الجوانب السلبية في المجتمع المسلم.

ثالثًا: حينما تسوء التربية في المجتمع، ويضعف الجهاز الأمني، ويتهاون كل فرد في أداء مسؤوليته.. هنالك تنمو الطفيليات الضارة في حقل المجتمع، وتتشكل في صورة خلايا وعصابات، وتكون العاقبة إشغال القيادة طويلًا بمثل حادثة الإفك.

٢- ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾

لماذا نجد القرآن الكريم يصف ما نراه شرًّا بأنه خير، وما نكرهه بأنه حسن؛ مثلًا حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[1]، ويقول سبحانه: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾[2].

أولًا: ليس كل شيء بظاهره؛ فالفتاة الجميلة الخائنة منظرها خلاب ومخبرها كارثة. والقتال في سبيل الله ينتهي في الظاهر إلى سيل من الدموع والدمار، ولكنه يقضي على الفتنة التي هي أشد من القتل.

وعلى البصير أن ينفذ بعقله إلى ما وراء الظواهر، ولا يتوقف عندها.

ثانيًا: وهكذا حينما تتشكل في المجتمع فئة معارضة تتكتم على أمرها، فإنها تتسبب في تقويض أسس المجتمع. كما الورم الخبيث ينتشر

(١) سورة البقرة، آية: ٢١٦.
(٢) سورة البقرة، آية: ٢٢١.

في الجسم بلا ألم، حتى إذا تفاقم ظهرت آثاره حيث لا ينفعه العلاج. أما إذا كشفت هذه الفئة عن نفسها سريعًا فسوف يتسنى للقيادة معالجتها في الوقت المناسب.

وهكذا كانت الفئة المنافقة تتحين الفرصة بالنيل من الرسول وقيادته الربانية، فاختلقت الإفك عندما رزق النبي مولودًا سماه بإبراهيم من زوجته القبطية. ولكن الأمة سرعان ما تحصنت ضد هذه الفئة ومكرها، فأصبحت حادثة الإفك في مصلحة المسلمين، بينما كانت في البدء تتراءى أنها ضدهم.

ثالثًا: لأن عصر التأسيس بداية الانطلاق، وكل حادثة فيه قد تصبح دروسًا للعصور اللاحقة، كان لا بد من وجود سابقة (اجتماعية، سياسية، قضائية) تهتدي بعبرها الأجيال الواعدة فيما يتصل بالشائعات التي تهدد أمن البلاد. وسوف نرى كيف نزل القرآن الحكيم في أجواء تلك الحادثة بوصايا جدّ مهمة. وهكذا كانت الحادثة -في النهاية- لمصلحة المسلمين.

٣- ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾

العصبة التي اختلقت الإفك لم تكن متساوية في احتمال وزره، لأن بعضهم كان قياديًّا مخططًا، بينما كان الآخرون في درجات أقل، ولكن المسؤولية كانت مشتركة.

أولًا: لأن حساب الإنسان عند الله لا يمر عبر القيادات الوسيطة، بل النداء حينما يأتي يشمل الجميع، حين ينادي المنادي: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾[1].

(١) سورة الصافات، آية: ٢٤.

وقال الله سبحانه: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾[1].

أما درجة المسؤولية ومقدارها فهي غير معلومة عندنا، ولكن الله بها عليم.

ثانيًا: حينما يكون كل فرد من أبناء المجتمع محصنًا ضد المؤامرات، ويعلم أنه سوف يقف أمام القضاء كما يقف رأس المؤامرة والمسؤول الأول عنها، فإن كثيرًا من المؤامرات سوف تفشل، خصوصًا وأن إيمان كل فرد من أبناء المجتمع بالقيادة الربانية إيمان مباشر، لا علاقة له بغيره من كبير أو صغير.

وهذه ميزة أساس في المجتمعات الإسلامية، تحصنها من احتمال السقوط في هاوية المؤامرات.

٤ - ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾

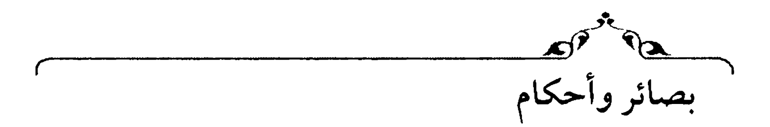
(بالرغم من مساواة الجميع أمام القضاء، إلا أن الرأس المدبر يتحمل الوزر الأكبر)، وهذا يعني العدل بكل مناحيه. ذلك أن لكل ذنب عقابًا يناسبه في الكم والكيف، وكل امرئ رهين بما اكتسبه، لا بما اكتسبه الآخرون. ألم يقل ربنا سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ﴾؟[2].

ونستوحي من هذه الكلمة، أن على القيادة الربانية أن تتعقب رؤوس المؤامرة، كما أن على الأمة محاربة أئمة الكفر. قال ربنا سبحانه: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴾[3].

(١) سورة الإسراء، آية: ١٣.
(٢) سورة الأنعام، آية: ١٦٤.
(٣) سورة التوبة، آية: ١٢.

ذلك لأننا قد نجد أن أئمة الكفر أو المؤامرة يتسترون عادة وراء الأكمة ويحركون البسطاء من الناس. كلا؛ على القيادة أن تكتشفهم وتلاحقهم وتعاقبهم.

* * *



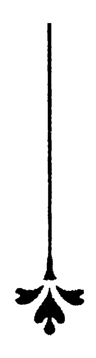
بصائر وأحكام

١- على المؤمن أن ينفذ بصيرته إلى غيب الظواهر ولا يكتفي بها.

٢- مسؤولية الإفك مشتركة بين المختلقين لها والخائضين، كل بقدر ذنبه. ووعي هذه الحقيقة يقلل من فرص نجاح الشائعات.

٣- حادثة الإفك محصَّت الأمة من مثيلاتها وأصبحت عبرة للأجيال الواعدة.

« حينما تسوء التربية في المجتمع، ويضعف الجهاز الأمني، ويتهاون كل فرد في أداء مسؤوليته.. هنالك تنمو الطفيليات الضارة في حقل المجتمع.



مسؤولية الأمة تجاه المؤامرات

﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ ﴾

***

تفصيل القول:

١ - ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾

ما هي مسؤولية الأمة تجاه المؤامرات عمومًا، وتجاه مؤامرة الإفك ونشر الشائعات بالذات؟.

أولًا: متى نكشف ضعف بناء المساكن والبيوت، أليس عند تعرض البلد لهزة أرضية؟ كذلك نكشف ثغرات بناء الجيش عند القيام بحرب، وثغرات المجتمع عند حرب الشائعات.

من خلال ردود الفعل تجاه الشائعة، نعرف مدى تماسك الأمة وثقتهم

بأنفسهم، وإيمانهم بقيادتهم، ومعرفتهم بالظروف السياسية المحيطة بهم.

ثانيًا: كان على المسلمين أن يسارعوا إلى تكذيب الذين يشيعون الفاحشة. لماذا؟.

لأن لكل إنسان معايير يعرف بها مدى صدق خبر أو كذبه. مثلًا؛ إذا قال لك البعض: إن إمارة صغيرة في أوروبا أو دولة في إفريقيا أو حزبًا إرهابيًا قد امتلكوا قنبلة ذرية أو صواريخ بالستية.. إنك لن تحتاج إلى مزيد تفكير حتى تقول: كلا.

من هنا جاء في الحديث الشريف المروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، أنه قال: «**إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَخْتَبِرَ عَقْلَ الرَّجُلِ فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ، فَحَدِّثْهُ فِي خِلَالِ حَدِيثِكَ بِمَا لَا يَكُونُ، فَإِنْ أَنْكَرَهُ فَهُوَ عَاقِلٌ وَإِنْ صَدَّقَهُ فَهُوَ أَحْمَقُ**»[1].

ثالثًا: المؤمنون يعرفون بعضهم، ويثقون بأن التورط في جريمة الزنا، وعلى أعلى المستويات (زوجة النبي صلى الله عليه وآله) مستحيل. فإن لكل حق حقيقة وعلى كل صواب نورًا، وإن هذا الخبر يتنافى وأبسط أخلاق المسلمين، فكيف ببيت الرسالة؟.

فلماذا لم يظنوا بأنفسهم خيرًا، إنهم فعلًا قد قصَّروا في مسؤوليتهم، وعليهم أن يتوبوا إلى ربهم.

٢- ﴿وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾

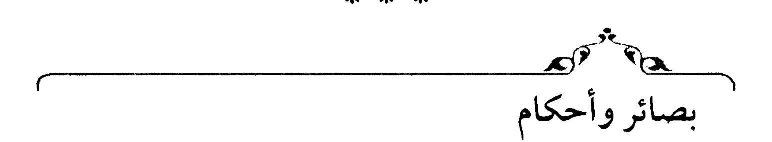
إن ردّ الشائعة ليس هو المطلوب وحده، وإنما أيضًا التعرض لمن يبثها والهجوم عليه ببيان خطيئته. لماذا؟.

(١) بحار الأنوار: ج١، ص١٣١.

أولًا: لأنه إذا كان كل إنسان يطرح وساوس وأقاويل وتهمًا ثم يكتفي المجتمع بردها دون التعرض له، فإنّ كل مرضى النفوس يقدمون على بث الشائعات الواحدة تلو الأخرى، والمجتمع ينشغل فقط بتفنيدها. كلا؛ على المجتمع أن يصف الشائعة بالإفك، ويتهجم على من يبثها حتى يفكر كل منافق مرتين قبل أن يقدم على بث الشائعات الباطلة.

ثانيًا: لأن إلقاء التهمة بذاته جرم، إلا بعد إثباتها. وهكذا فلا يجوز لأي شخص أن يستمع إلى أي متهِّم من دون رده، بل عليه أن يطالب المتهِّم بالدليل وإلَّا فيرده ردًّا حاسمًا.

* * *



بصائر وأحكام

١- عندما تتعرض البلاد لهزة أرضية، تظهر ثغرات الأبنية فيها. وعندما يتعرض المجتمع لمؤامرة، تظهر ثغراته الأمنية.

٢- أودع الله سبحانه في قلب كل واحد موازين لمعرفة الحق والباطل.

٣- على الإنسان أن يستفيد من معاييره الفطرية لكشف الإفك وفضح المؤامرة.

٤- لا يكفي رد الشائعة التي تمس أمن البلاد وشرف الدين وكرامة الناس، بل على المؤمنين ردع من يبثها بالوسائل السلمية.

٥- لا يجوز الاستماع إلى التهمة دون ردها، بل لا بد من الدفاع عن المتهم بلا دليل.



مسؤولية إنسانية

﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾

* * *

تفصيل القول:

١ - ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ﴾

على المسلمين أن يعرفوا حدود الله سبحانه في الكلام، وإلَّا فإنهم سوف يشاركون في هدم بنيانهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون. كيف؟.

أولًا: ربنا سبحانه يقول: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ﴾[1].

هذه مسؤولية إنسانية. فأنت لست بلا تكليف تجاه ما تستمع،

(١) سورة الزمر، آية: ١٧-١٨.

بل عليك مسؤولية تقييم ما تسمع، ثم اتباع أحسنه. وهكذا إذا بُثَّتْ دعاية معينة (شائعة، تهمة، خبر هام، و..) فعليك أن ترجع إلى القيم العقلية التي تملكها ثم تعرض ما سمعته عليها وتعطي رأيًا حاسمًا فيها.

ثانيًا: لأن تهمة الفاحشة ليست كغيرها -بل هي شديدة الأهمية- فلابد أن يقام عليها أدلة كافية تتمثل في أربعة شهداء عدول. ولا يكتفى فيها فقط بشاهدين (وهذا حد الله في مثل هذا الادعاء). لذلك كان الادعاء بلاشهود مجرد إفك، بل هو إفك مبين.

ثالثًا: هناك شائعات شديدة الانتشار، وهي التي تتناول القادة أو الجنس أو الدين. أما القادة السياسيون فلاهتمام الناس بهم عادة وبأخبارهم، وأما الجنس فلأن البعض يتلذذ بذكره، وأما الدين فلأن الناس مهتمون به وبمن يمثله. ومن هنا فإن الأفّاكين يختارون مثل هذه الشائعات لكي تتداولها أفواه الرجال بلا صعوبة. وشائعة الإفك اتصلت بالرسول ﷺ وهو أعلى قائد سياسي وأعظم مرجع ديني، وكانت تدور حول مسألة جنسية، فلذلك انتشرت بسرعة.

> » على المسلمين أن يعرفوا حدود الله سبحانه في الكلام، وإلاّ فإنهم سوف يشاركون في هدم بنيانهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون.

٢- ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾

السؤال العريض: كيف يعتبر القرآن المدعي كاذبًا بمجرد عدم وجود دليل له؟.

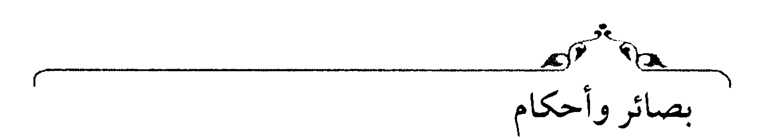
أولًا: لأن نقل التهمة وبهذا الحجم، التي تتناول مثل شخصية الرسول الأعظم ﷺ بذاته جرم، لأن آثارها في المجتمع خطيرة. إنها تثير الشبهات في عقائد الناس وثوابتهم التي قامت عليها حياتهم.

ثانيًا: لأن القيمة المثلى في الحياة هي الصلاح والإصلاح، أما الفساد والإفساد فإنهما ضد كل قيمة. وإذا كان الكلام يؤدي إلى الفساد، فإنه باطل حتى ولو كان في الظاهر صحيحًا. مثلًا؛ إذا مشى أحد بنميم وبث الفرقة بين الناس بنقل ما يقوله البعض ضد الآخر، فإن صدقه كذب، لأنه يؤدي إلى الفتنة، وهو عند الله كاذب. ومن أصلح بين الناس بكلام ظاهرهُ كذب. مثلًا؛ حكى لزيدٍ أن عمرًا قد مدحهُ. فإنه صادق عند الله، وإن كان عمرو لم يقل شيئًا، لأن كلامه يؤدي إلى إصلاح ذات البين.

ولذلك جاء في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ، في وصيته للإمام علي عليه السلام قال: «**يَا عَلِيُّ؛ إِنَّ اللهَ أَحَبَّ الْكَذِبَ فِي الصَّلَاحِ، وَأَبْغَضَ الصِّدْقَ فِي الْفَسَادِ..**»(1).

ثالثًا: كثير من كلام الناس يعكس أوهامًا وظنونًا، وإذا كان الكلام صادقًا بمجرد قناعة المحدث به، فإن أساس المجتمع يكون على جرف هارٍ، إنما الكلمة الطيبة هي التي تعتمد الأدلة وتهدف الإصلاح.

* * *



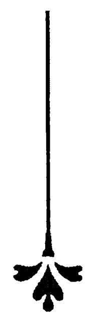
بصائر وأحكام

١ - الشائعة التي تمس قادة الدين أو السياسة هي الأشد انتشارًا، والأفاكون يختارونها لتمرير مآربهم.

٢ - الحياة قائمة على الصلاح والإصلاح، وكل كلمة تثير الفتنة وتنشر الفساد كذب ولو كان ظاهرها صدقًا.

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٢، ص٢٥٢.



رحمة الله سبب النجاة

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾

* * *

تفصيل القول:

١ - ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾

في الآية العاشرة من سورة النور، كما في هذه الآية أيضًا جاءت هذه الكلمة الصاعقة التي تنطوي على إنذار شديد. لماذا؟.

أولًا: هناك حُذِفَ جواب لولا، بينما أثبت هنا. ونستوحي من ذلك أن الجواب الثاني هو محتوى ما حذف في المرة الأولى. وقد تخلل بينهما ذلك الوضع الذي كان يقتضي تلك العاقبة السوءى، وهو العذاب العظيم. ويتمثل ذلك الوضع في السكوت عن تلك التهمة الشنيعة، التي تناولت أسرة النبي ﷺ بما لها من تداعيات خطيرة.

ثانيًا: لا بد أن نعرف أن سنن الله في خلقه، تقتضي الكثير من العذاب لولا رحمته التي تتدخل فتعطل تلك السنن في كثير من الأحيان. قال الله سبحانه: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾[1].

بل إن ذنوب العباد قد تقتضي تدمير كل ما على الأرض. قال ربنا تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾[2].

إذًا علينا أن نشكر الله سبحانه أبدًا على رحمته التي تفصل بيننا وبين عذابه الذي تقتضيه السنن الجارية في خلقه.

إن علينا ألَّا نغتر إذ لم يؤاخذنا الرب بعذابه، ولا نأمن مكر ربنا سبحانه، بل نتقيه ونستغفره ونشكره أبدًا.

٢- ﴿ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

نستفيد من الآية؛ أنهم أفاضوا في الحديث عن ذلك الإفك المبين وبدؤوا يتناقلونه فيما بينهم، وكان جزاؤهم العذاب العظيم. لماذا العذاب، وماذا كان العذاب المحتمل؟.

أولًا: إنما استحقوا العذاب لأنهم اشتركوا في نشر شائعة كاذبة تمس القيادة الربانية. أو ليس النبي ﷺ كان أمانًا لأمته، حين قال ربنا سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[3].

---

(١) سورة الشورى، آية: ٣٠.

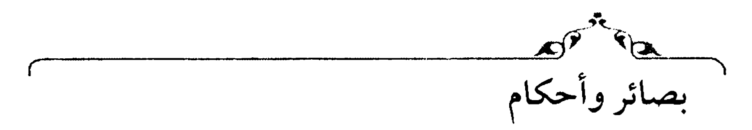
(٢) سورة النحل، آية: ٦١.

(٣) سورة الأنفال، آية ٣٣.

ثم إن الإنسان مسؤول عن عقائده ألَّا تتعرض لوساوس الشيطان، وهو مسؤول عن سلوكه ألَّا يتبع فيه خطوات إبليس. وهؤلاء تعرضت عقائدهم للهزة بتلك الشائعة التي انتشرت فيهم، وأفاضوا فيها.

ثانيًا: ربما كان العذاب، متمثلًا في القحط والسنين، أو تسلط الجبارين، أو الأمراض والأوبئة، أو السيول والزلازل.. فإنها محتملة، ولكن لعل العذاب الأشد هو تفرق الناس عن قيادتهم، وتسلط الطغاة عليهم.



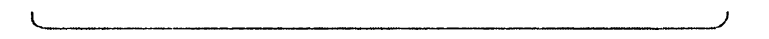


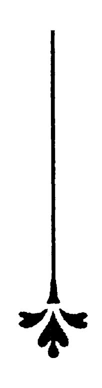
بصائر وأحكام

١- سنن الله في خلقه تقتضي عقوبة المذنبين، لكن رحمته تحول دون ذلك.

٢- الإنسان مسؤول عن عقائده ألَّا تعصف بها وساوس الشيطان، وعن سلوكه ألَّا يتبع خطوات الشيطان.

٣- من أشد ألوان العذاب للمتمردين عن طاعة الله والرسول، تسلط الطغاة وفتنة الاختلاف.





حصائد اللسان

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

* * *

تفصيل القول:

١ - ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾

ماهو التلقي باللسان، ولماذا يعاب المؤمن بأن يقول ما ليس له علم به؟.

أولًا: حينما يكون اللسان ترجمان القلب يقوم -آنئذٍ- بدوره الحق، أما إذا أصبح موجِّهه القلب فإنه يقوم بدور سيئ. وهكذا جاء عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، أنه قال: «**لِسَانُ الْعَاقِلِ وَرَاءَ قَلْبِهِ، وَقَلْبُ الْأَحْمَقِ وَرَاءَ لِسَانِهِ**»[1].

(١) نهج البلاغة، حكمة رقم: ٤٠.

وهكذا لا يجوز للمؤمن أن يلغي دور عقله ويسترسل مع لسانه ويردد كالببغاء ما يقوله الآخرون. ولعل هذا هو معنى التلقي باللسان من دون أن يكون للعقل والفكر وقيم الوحي دور في تقييم الكلام الذي يردده.

ثانيًا: ومن هنا نعرف أن المجتمع المسلم مجتمع ناقد، وكل فرد فيه يتحمل مسؤولية ما يدور فيه من كلام، فإذا كان حقًّا أذاعه وإلّا منعه ورده.

ثالثًا: ولا يجوز للإنسان أن يقول بلسانه ما ليس له به علم، إنما المؤمن هو الذي ينطق بالحق الذي يعلم أو يسكت. قال رسول الله ﷺ: «**رَحِمَ اللهُ عَبْدًا تَكَلَّمَ فَغَنِمَ، أَوْ سَكَتَ فَسَلِمَ**..»[1].

٢- ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾

لماذا يستهين الناس بحصائد ألسنتهم؟.

أولًا: حينما منّ الله على البشر بالبيان، فقال سبحانه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[2]، فليس لكي يحرك لسانه يمنة ويسرة وبلا هدف، بل لكي ينتفع بلسانه في تعلم القرآن والعلوم المفيدة. ولكن البشر، وربما بسبب يُسر البيان، يستغل هذه النعمة العظيمة في بث همومه ووساوس قلبه.

رُويَ أنهُ «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَوْصِنِي. فَقَالَ ﷺ: **احْفَظْ لِسَانَكَ**.

(١) بحار الأنوار: ج٧٤، ص١٨٠.
(٢) سورة الرحمن، آية: ١-٤.

قَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَوْصِنِي.

قَالَ ﷺ: **احْفَظْ لِسَانَكَ.**

قَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَوْصِنِي.

قَالَ ﷺ: **احْفَظْ لِسَانَكَ، وَيْحَكَ! وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**»[1].

فاللسان مثل حَصَّادة سريعة، تحصد إما الثواب وإما العقاب. وعشرات الأعمال الصالحة حصيدة اللسان، كما أن مثيلتها أو أكثر من سيئ الأعمال مصائد اللسان.

ثانيًا: لو عرف الناس ما للذنوب التي ترتكبها ألسنتهم من آثار خطيرة على حياتهم، لودَّ الواحد منهم أن يكون ملجمًا.

إن العصبيات الجاهلية والتهم والغيبة، و..و..، إنها تمزق المجتمعات المتماسكة وتعرضها لخطر الانهيار. فهل يعلم الناس ذلك؟.

* * *

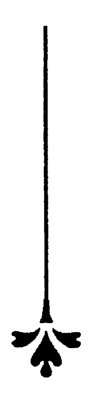
بصائر وأحكام

١- لا يجوز للإنسان إلغاء دور عقله في تقييم ما يقوله الآخرون.

٢- اللسان حَصَّادة كبيرة، تحصد إما الصالحات أو السيئات.

---

(١) الأصول من الكافي، ج٢، ص١١٥.



مسؤولية المجتمع تجاه الشائعات

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

* * *

تفصيل القول:

١ - ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾

لماذا تكررت هذه البصيرة وبعبارات شتى في هذا السياق؟.

أولًا: إذا تأملناها نجد أنها ليست بصيرة واحدة، بل هي بصائر شتى. ففي البدء كان العتاب بسبب انعدام الثقة بين المسلمين، وأنه كان عليهم أن يحسنوا ظنهم بأنفسهم. وأن الأمة التي لا تصمد ثقتها بنفسها (بعضها ببعض أو بالقيادة) أمام شائعة، لهي أمة تستحق العذاب. قال الله سبحانه: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ

خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ﴾[(١)].

ثـم بيّن السـياق الحد الفاصـل بين الادعـاء والحقيقـة. قال الله سبحانه: ﴿ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴾[(٢)].

وأنذرهم السياق بعدئذٍ بالعذاب الذي ينتظر مثل هؤلاء الذين شاركوا في بث الشائعة وأفاضوا فيه. قال الله سبحانه: ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[(٣)].

وبين السـياق بصيرة مهمة، أنه لا يجوز أن يردد الإنسـان أقوال الآخرين من دون علم، وأنه ليس هذا أمرًا هينًا، بل هو عند الله عظيم. قال الله سبحانه: ﴿ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ﴾[(٤)].

أما هنا، فإن القرآن الحكيم أمر، وبنص لا يقبل التأويل، ضرورة المجاهرة برد الشائعة.

ثانيًا: إن كثيرًا من الإشـاعات الباطلة تتلاشـى عندما يحاصرها المجتمع الواعي، ويطالب المشـتغلين بها بالبرهان ويقول لهم: اسـكتوا ما دمتم لا تملكون أدلة كافية وحقًّا.

هـذه المعالجة الجذريـة لأعقد مشـكلة اجتماعية، وهي مشـكلة الشائعات، تحفظ وحدة الأمة، وهي بمثابة سور منيع لبنيانها المتماسك.

---

(١) سورة النور، آية: ١٢.

(٢) سورة النور، آية: ١٣.

(٣) سورة النور، آية: ١٤.

(٤) سورة النور، آية: ١٥.

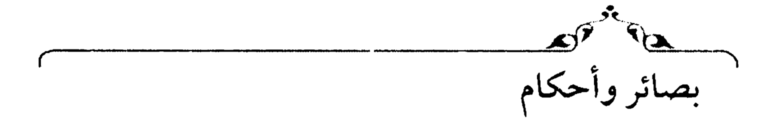
٢- ﴿سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ﴾

في الآيـة (١٢) من سـورة النور أمر المسـلمين بـأن يقولوا: هذا إفك مبين، وهنا ذكرت الآية أنه بهتان عظيم. لماذا؟.

أولًا: لأن الإفك يشـبه المؤامرة، فهو يتصل بالجانب السـياسي، والبهتـان يتصـل بالجانـب الأخلاقـي. وكثيرًا مـا يتـورع البعض عن الأول، فيما لا يتورع عن الثاني، وعلينا أن نردعهم عنهما جميعًا.

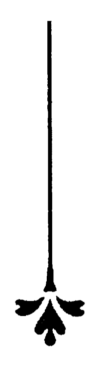
ثانيـًا: لعل الحديث هناك عن جانـب الوضوح وأنه إفك مبين، وهنا الحديث عن جانب الخطورة وأن هذا البهتان عظيم. والله العالم.





بصائر وأحكام

* الإشـاعات الباطلة تتلاشـى عند محاصرتها مـن قبل المجتمع الواعي.



كذلك وعظنا ربنا

﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

***

تفصيل القول:

١ - ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا ﴾

إذا اعتبر المسلمون بمؤامرة الإفك، واكتشفوا ثغرات المجتمع النفسية والاجتماعية، وعرفوا العصابات المنافقة المندسة بينهم، فإنهم سوف يتحصنون من الوقوع في أمثالها. وربما لهذا ذكر السياق: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1].

ولكن كيف يتم ذلك؟.

(١) سورة النور، آية: ١١.

أولًا: إن في الكائنات المخلوقة ثوابت ومتغيرات. فالأنظمة التي تسودها والتي نسميها بالسنن الإلهية، مثل قانون الجاذبية، إنها ثوابت. أما الموجودات التي تتحكم فيها تلك الأنظمة فهي متغيرات.

فالجاذبية قد تكون في صخرة أو في جبل أو في كوكب، وهكذا.. وكذلك الأنظمة التي تسود المجتمعات (سنن الله في الناس، أو قل القوانين الاجتماعية) إنها ثوابت. وأما الأشخاص التي تسودهم هذه الأنظمة فهم يتغيرون.

وعلينا دائمًا أن نكتشف من خلال الظواهر الاجتماعية تلك السنن التي تجري فيها والتي تتكرر في أشخاص آخرين، وهذه هي عبرة التاريخ. وقصة الإفك هي الأخرى جزء من تلك الأنظمة.

من هنا جاء في الحديث الشريف عن الإمام محمد الباقر عليه السلام، أنه قال: «**إِنَّ الْقُرْآنَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، وَالْآيَةَ حَيَّةٌ لَا تَمُوتُ، فَلَوْ كَانَتِ الْآيَةُ إِذَا نَزَلَتْ فِي الْأَقْوَامِ مَاتُوا مَاتَتِ الْآيَةُ لَمَاتَ الْقُرْآنُ، وَلَكِنْ هِيَ جَارِيَةٌ فِي الْبَاقِينَ، كَمَا جَرَتْ فِي الْمَاضِينَ**»[1].

ثانيًا: وليس وعي عبرة التاريخ وحده كافيًا، وإنما الأهم التسلح بإرادة قوية للانتفاع بتلك العبرة، وإلا فما أكثر العبر وأقل المعتبر.

٢- ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

ما هي صلة الإيمان بالعبر التاريخية؟.

أولًا: الإيمان منظومة معرفية متكاملة. فليس المؤمن من يغلق قلبه دون آيات الله في كتابه وآياته في الآفاق، وإنما ذلك الكافر الذي

---

(١) بحار الأنوار: ج٣٥، ص٤٠٣.

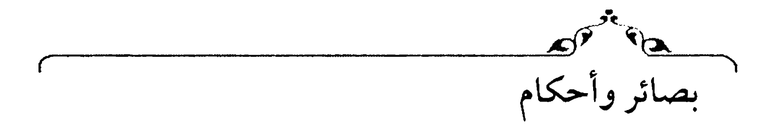
يقول عنه ربنا سبحانه: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾[1].

وهكذا المؤمن ينفتح ببصائره على التاريخ، فيمتص بوعيه دروسه عبرة عبرة، ويستخلص سنن الله الجارية فيه سنة سنة. أولم يقل ربنا سبحانه: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[2].

ثانيًا: الإيمان يشد عزائم الناس حتى يتغلبوا على ضعفهم وإهمالهم، وحتى يأخذوا الأمور بجدٍّ وحيوية، ولا يتهاونوا في سد الذرائع التي تنفذ من خلالها الأخطار على الأمة.

ومن هنا فإن صلة الإيمان بالاعتبار من قصص الغابرين ذات وجهين: علمية، وسلوكية. والله المستعان.





بصائر وأحكام

* في الخليقة ثوابت تتمثل في سنن الله الحاكمة عليها، ومتغيرات تتمثل في مصاديقها، وعلينا أن نبحث من خلال المصاديق عن تلك السنن الثابتة.

(١) سورة الأعراف، آية: ١٧٩.
(٢) سورة الفتح، آية: ٢٣.



من تجليات آيات الرب

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

* * *

تفصيل القول:

ما هي الآيات، وكيف بَيَّنها ربنا العليم الحكيم؟.

أولًا: الآية هي العلامة، والحقائق ذات سمات وعلامات. ومن الحقائق سنن الله في خلقه. وحقائقها تظهر من خلال حوادث التاريخ، أو من خلال الظواهر الاجتماعية التي تترى أمام أعيننا كل يوم، إلا أننا غافلون عنها.

ثانيًا: وعندما يذكِّرنا ربنا سبحانه من خلال الوحي بتلك الآيات، فنتأمل فيها وننفذ ببصائرنا إلى أغوارها حتى نعرفها، عندئذٍ تكون الآيات نافذة لأنها تخترق إلى ما وراءها. أرأيت كيف أن الألفاظ التي نتداولها، ما هي إلا جسر نصل من خلالها إلى المعاني؟ كذلك الآيات.

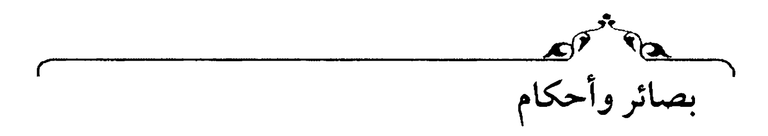
ثالثًا: إن لكل آية يهدينا بها الله إلى الحقائق جانبين:

١- جانبًا علميًّا، حيث نعرف سنن الله بها.

٢- جانبًا سلوكيًّا، حيث ننظم حياتنا وفق تلك المعرفة. وآنئذٍ نصل إلى الحكمة.

وهكذا كان من المناسب أن يذكرنا ربنا سبحانه باسميه؛ العليم الحكيم.

* * *



بصائر وأحكام

* لكل حقيقة نور يتجلى لنا عبر آياتها، والمؤمن يدرك بها الحقائق ثم ينظم سلوكه وفقها.

» الآية هي العلامة، والحقائق ذات سمات وعلامات. ومن الحقائق سنن الله في خلقه. وحقائقها تظهر من خلال حوادث التاريخ، أو من خلال الظواهر الاجتماعية التي نترى أمام أعيننا كل يوم.



العذاب عقبى إشاعة الفاحشة

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

* * *

تفصيل القول:

١ - ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ ﴾

عاد السياق يذكرنا بإشاعة الفاحشة. لماذا، أولم يستوف الحديث عنها آنفًا؟.

أولًا: لكل ذنب ظاهرٌ يتمثل في السلوك، وباطن يتمثل في الحالة النفسية. فحب الفاحشة هو ذلك الجانب النفسي، وعلى المؤمنين أن يطهروا نفوسهم من حب إشاعة الفاحشة، وذلك بأن يكرهوا الفاحشة ويبغضوا من يذكرها.

ومن هنا فإن أدنى ما يفعله المؤمن عندما يواجه ما يخالف الدين، أن ينكره بقلبه وذلك أضعف الإيمان.

ثانيًا: إنّ من يحب إشاعة الفاحشة فهو لا ينكرها، وإذا شاعت شملته وشملت أحبته. فمن أحب مثلًا شيوع الزنا، فإنه معرض لارتكابه أو وقوع محارمه فيه. وهذا نوع من عذاب الدنيا الذي ينتظره.

إن مئة ألف من أصحاب السبت عذَّبهم الله في الدنيا -قبل الآخرة- لأن أربعين ألفًا منهم ارتكبوا الصيد الحرام في يوم السبت، أما الستون ألفًا منهم فلم يتناهوا عنه، فعمَّهم ربهم بالعذاب.

وهكذا فإن مجرد حب إشاعة الفاحشة حرام، سواءً كان بصورة مباشرة واضحة أم غير مباشرة. مثلًا؛ من أحب تورط سلطان يعارضه في قتل الناس حتى يفتضح ويسرع إلى السقوط، أو تمنى لو وقع معارضوه في أخطاء قاتلة أو حتى أحب لو أن الشخص الفلاني الذي يحسده يقع في خطأ فاضح.. إنهم جميعًا ربما انتظرهم العذاب في الدنيا، ومنه وقوعهم بأنفسهم في تلك المهالك التي تمنوها لغيرهم. والله العالم.

٢- ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾

إن سنن الله التي تحيط بنا كثيرة، ولسنا نعلمها جميعًا. فعلينا ألَّا ننكرها بمجرد جهلنا بها، وإنما علينا أن نسلّم لما بيَّنه ربنا لنا. لماذا؟.

أولًا: لأن غرور العلم كان وراء الكثير من جهالات البشرية عبر التاريخ، وحسبما ذكره إمام الحكماء أمير المؤمنين عليه السلام: «**مَنْ ادَّعَى مِنَ الْعِلْمِ غَايَتَهُ، فَقَدْ أَظْهَرَ مِن جَهْلِهِ نِهَايَتَهُ**»[1].

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، ص٤٦، حكمة رقم: ١٩٢.

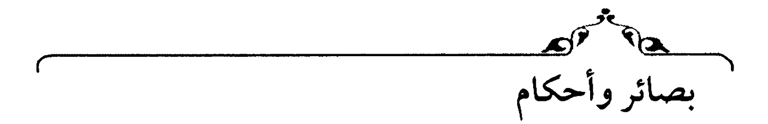
وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**غَايَةُ الْعَقلِ الاعتِرَافُ بِالجَهْلِ**»[1].

ولذلك فإن مواجهة غرور الذات بداية الدخول في رحاب المعرفة.

ثانيًا: وكلما اعترفنا بجهلنا بحثنا عن مصدر أمين للعلم. فمن أين نجده؟.

إنه ربنا سبحانه، وهو يوحي إلينا عبر كتابه، ويلهمنا عبر نور العقل، ويوفقنا له عند الاستعانة به والدعاء إليه.

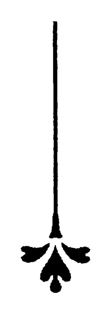




بصائر وأحكام

* حب الفواحش خطوة إليها، وحب إشاعتها حرام ويقتضي العذاب.

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، ص٥٢، حكمة رقم: ٣٩٤.



فضل الله حصن

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾

***

تفصيل القول:

ليس من السهل أن يتحرر البشر من مصائد إبليس، وإنما المرء بحاجة إلى توفيق من الرب سبحانه وفضل ورحمة.

والسؤال: لماذا -إذًا- يفضل الله قومًا على آخرين؟.

أولًا: مَن آمن بالله حقًّا وبرسوله فإن الله يتفضل عليه برحمته ويعطيه كِفلين.

قال الله تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾[1].

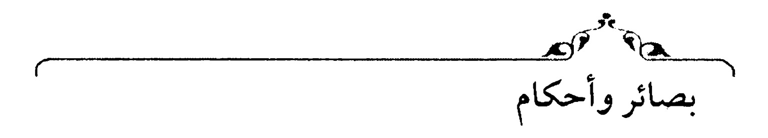
(١) سورة النساء، آية: ٣١.

وقال الله سبحانه: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾[1].

ثانيًا: لأن اجتناب بعض الذنوب، مثل ذنوب القلب صعب؛ فإن الله سبحانه يتفضل على عباده بأن يعصمهم منها برأفته ورحمته. فمن وُفِّق لذلك فلا يغتر بنفسه، ولا يترك التوكل على الله والاستعاذة به من شر نفسه والشيطان.

ويبدو أن جواب هؤلاء يأتي في الآية التالية: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[2].



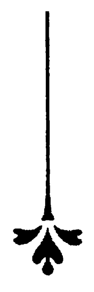


بصائر وأحكام

* تحرر البشر من مصائد إبليس صعب مستصعب لا يناله إنسان إلا بفضل من الله ورحمة.

(١) سورة هود، آية: ١١٤.

(٢) سورة النور، آية: ٢١.



لكيلا نتبع خطوات الشيطان

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) ﴾

* * *

تفصيل القول:

١ - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾

كما أن سبيل الهدى يمر عبر مراحل، ابتداءً من النية الصادقة ومرورًا بالعمل الصالح وانتهاءً ببلوغ مرحلة اليقين؛ كذلك سبيل الغي فإنه يتسافل عبر دركات، كلما هبط الضال دركة استسهل الهبوط إلى أسوأ منها. كيف ذلك؟.

أولًا: لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، على فطرة التوحيد، وخلق الصدق، وسلامة السلوك.. فكيف يغويه إبليس؟.

إنـه يضـع أمامه خطـوات، كلما اتبـع خطوة منها اسـتدرجه إلى أسـوأ منها. ألا نجد كيف أغوى أبانـا آدم عليه السلام وزوجته، كما قال الله سبحانه: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾[1].

وهكذا على الإنسان أن يتسلح بالوعي لكيلا يغره الشيطان، بل يتحداه منذ أول لحظة.

ثانيًا: وإنما يسـتطيع الإنسـان تحدي غرور الشيطان وعدم اتباع خطواته التي تسـتدرجه إلى النـار بالتفكر في العاقبة. فإن من يهوي من فوق جبل لا يستقر به المقام إلا في قعر الوادي.

كذلك الذي يقع في استدراج الشيطان يهوي إلى حيث الفحشاء والمنكر. وعلى الإنسـان أن يكتشف مبكرًا غرور الشيطان، ويفكر لماذا يجب أن تشـيع الفاحشـة في الذين آمنوا؟. وإذا انتشرت الفاحشـة، أوَ ليس تعمّ كل أبناء المجتمع؟. ولماذا الإفك، ولماذا التهم الرخيصة؟.

إذًا عرف الإنسـان نهاية الطريق، يتصرف بحكمة، ونهاية طريق الشيطان النار، والعياذ بالله.

٢ - ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾

بـادئ ذي بـدء، يظـن المـرء أن بامكانه أن يتخلـص من مصائد إبليس بسهولة، ولكن كلا؛ فمن دون توفيق الله سبحانه لا يزكى أحد

(١) سورة الأعراف، آية: ٢٠.

أبدًا. كيف ذلك؟.

أولًا: إن الشيطان يجري من أحدنا مجرى الدم، وأنه يرانا من حيث لا نراه، وإنه يأتينا من أطرافنا ويستخدم كل أساليب الخداع والمنكر، وإنه يثير ما في نفوسنا من ركائز الجهل وشهوات الدنيا، وإنه قد يتمثل في شياطين الإنس من طغاة القوة ومترفي الثروة وشعراء الغرور.

فكيف يتسنى لنا أن نتخلص منه؟.

إنما بفضل الله المتمثل في وحيه؛ في كتابه الكريم وسنة نبيه ﷺ وأهل بيته الأطهار عليهم السلام والانتماء إلى حزبه، وبالتالي الاستفادة من كل التعاليم والوصايا التي جاء بها دين الله. وكذلك استدرار رحمته عبر الدعاء إليه، والاستعاذة به، والتوكل عليه.

تصور أنك في حقل ألغام والعدو يلاحقك، والليل والظلام والإرهاق يحيط بك، فكيف تنجو من الهلاك من دون بذل أقصى الجهد، واتباع خريطة النجاة، والتسلح بالحذر الشديد؟.

ثانيًا: نظرة الإنسان السلبية إلى نفسه مسؤولة عن أكثر أخطائه. فليس الإنسان حيوانًا متطورًا، وإنما هو الذي حمل أمانة أشفقت منها السماوات والأرض والجبال الراسيات. ولذلك فإما هو نزيل نار لا رحمة فيها ولا نجاة منها، وإما ضيف جنات عدن في مقعد صدق عند مليك مقتدر. ولكي يصل إلى هذه الذروة، فهو بحاجة إلى قوة دفع هائلة تتمثل في التمسك بحبل الله.

إن لحظة الغرور والاعتقاد بأن شخصًا يمكنه الاعتماد على نفسه، هي بالذات لحظة النهاية.

٣- ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

لله سبحانه السلطان التام، والمشيئة الفعالة. فإليه يتأله المتحيرون، وبه يستعين المحتاجون. وأبرز حاجات البشر الهداية إلى السبيل القويم. والله هو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الذي يزكي من يشاء. فما هي التزكية، وماذا علينا نحن المخلوقين أن نفعل؟.

أولًا: علينا أن نصل بأنفسنا إلى حقيقة العبودية، ونتضرع إليه وحده غير مشركين به في دعائنا غيره. وهذه الضراعة هي المعراج إلى درجات السمو، ومنطلقها تزكية النفس.

إن النفس التي تصل إلى هذه المرحلة المتقدمة من التوحيد، هي التي تفوز -بإذن الله- إلى حيث التزكية.

فعلينا أن نجعل دعاءنا كالحريق الذي تحيط به ألسنة اللهب ويرجو النجاة بدعائه، أو كالغريق الذي تحتوشه أمواج المياه ولا يرجو غير ربه لخلاصه. هكذا أُمرنا بالدعاء مثل الغريق. فقد جاء في الدعاء المأثور عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، أنه قال: «.. **أَدْعُوكَ دُعَاءَ مَنِ اشْتَدَّتْ فَاقَتُهُ، وَقَلَّتْ حِيلَتُهُ، وَضَعُفَتْ قُوَّتُهُ، دُعَاءَ الْغَرِيقِ الْغَرِيبِ الْمُضْطَرِّ الَّذِي لَا يَجِدُ لِكَشْفِ مَا هُوَ فِيهِ إِلَّا أَنْتَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ**»[1].

وروي فيما وعظ الله عز وجل به النبي عيسى عليه السلام، قال: «**يَا عِيسَى؛ ادْعُنِي دُعَاءَ الْغَرِيقِ الْحَزِينِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ مُغِيثٌ**»[2].

---

(١) الأصول من الكافي، ج٢، ص٥٦٠.

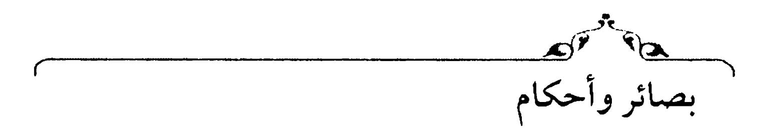
(٢) روضة الكافي، ج٨، ص١٣٨.

ولعل هذا هو معنى الضراعة حقًّا، حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾(1).

ثانيًا: حيث إن الحديث كان عن حب إشاعة الفاحشة، فإن الذي يتناسب معه ذكره هو تطهير القلب بتزكيته عن الفواحش الباطنة، مثل الحقد والحسد والعصبية وغيرها. وهذا هو أصل التزكية.

والله سميع لما يقوله البشر من تهم كالإفك، وعليم بما في القلوب، وهو المستعان على أنفسنا.





بصائر وأحكام

* الشيطان يستدرج البشر بخطوات متسلسلة، وعلى الإنسان أن يتسلح بالتفكير في نهاية الطريق، ويتضرع إلى الله سبحانه أن يزكيه ويعيذه من كيد إبليس.

(1) سورة الأعراف، آية: ٩٤.



اعفُوا واصفحُوا

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) ﴾

* * *

تفصيل القول:

١- ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾

ثلاث فئات اجتماعية يستحقون العطف والعطاء، سواءً كانوا يوافقونك المذهب أم لا، وهؤلاء يُستثنون مما يُفرِّق المجتمع المسلم؛ مثل حادثة الإفك التي عصفت بالمجتمع المدني، وفرقت وحدتهم لحين، لماذا الاستثناء؟.

أولًا: من أهداف المجتمع الإسلامي إقامة حكومة الصالحين،

التي بشر بها ربنا سبحانه، حيث قال: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾[1].

وهدف الصالحين من الحكم نشر العدل وتنمية الفضيلة وإقامة الإحسان إلى الناس جميعًا. ومن هنا فإن على عباد الله الصالحين ألّا يتوانوا في خدمة عموم الناس، وليس فئة خاصة منهم. وليس هدفهم أبدًا الاستئثار بخيرات الأرض من أجل أنفسهم.

وهكذا نجد أن النبي إبراهيم عليه السلام حينما دعا ربه أن يرزق من عباده من آمن بالله، استجاب الرب دعوته فيهم وفي غيرهم إلى حين. قال ربنا سبحانه: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[2].

ثانيًا: حينما تمزق الأمة فتنة عمياء، فعلى القيادة الربانية السعي وراء إعادة لحمتها، لكيلا يطمع فيها العدو المتربص من الخارج. ولعله لذلك جاء أمر القرآن بضرورة الإنفاق من قبل أولي الفضل والسعة على الطبقات المحرومة بعد حادثة الإفك.

وقد خص أولي القربى بينهم، لأنهم الحلقة الأقرب إلى الأسرة التي تدور آيات سورة النور حولها. فالأسرة الفاضلة هي التي يفيض منها الخير إلى محيطها، فإذا كان لديهم فضل (نفل، عفو، خير إضافي) من أرض أو متاع أو مال أو.. أو.. فلا يبخلون به على أقاربهم والمساكين والمهاجرين. أما إذا كانوا أهل سعة ومكنة، فالأمر أوضح.

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ١٠٥.
(٢) سورة البقرة، آية: ١٢٦.

٢- ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

بالرغم من أن العفو والغفران صفة حسنة للكل، إلا أن الأسر الفاضلة (المؤمنة والغنية) هم أولى بها، لماذا؟. وما الصلة بين هذه الصفة وطلب المغفرة من الرب سبحانه؟.

أولًا: العفو والصفح والمغفرة والرحمة، وبالتالي أية صفة أخلاقية فاضلة منشؤها التعالي عن روح الانتقام والحقد والعداء، لأنها من الهوى الذي ينهى المؤمن نفسه عنه، ومن حب الذات والله سبحانه يؤدبنا بحبه وحب عباده.

» هدف الصالحين من الحكم نشر العدل وتنمية الفضيلة وإقامة الإحسان إلى الناس جميعًا. من هنا فإن على عباد الله الصالحين ألاّ يتوانوا في خدمة عموم الناس.

ثانيًا: إن هناك صلة وثيقة بين عفو الله سبحانه والعفو بين الناس. فمن أحب عفو ربه، فعليه أن يعتمد منهج العفو عن الناس. فيما يراه ضياعًا لحقه.

ثالثًا: إن أسماء الله الحسنى هي المثل العليا، التي لو انعكست على نفس البشر لأصبحت حياتهم سعيدة. وهكذا علينا أن نتخلق بأخلاق الله تعالى كما جاء في الحديث الشريف: «**تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ الله**»[١].

* * *

(١) بحارالأنوار، ج٥٨، ص١٢٩.

بصائر وأحكام

١ – هدف الصالحين من السلطة نشر العدل والإحسان إلى الناس جميعًا.

٢– عندما تمزق الفتن صف الأمة على قيادتها إعادة لحمتها بالصفح وتأليف القلوب.

٣– الأسماء الإلهية حينما تتجلى في سلوك المؤمنين تورثهم الفلاح في النشأتين.



كيف يزعزع القذف الأمن الاجتماعي؟

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

* * *

تفصيل القول:

ما هذه اللعنة الماحقة؟ ولماذا؟.

أولًا: حينما يقذف شخص امرأة ذات ثلاث صفات، فهو قد اقترف لكل صفة ذنبًا.

فالصفة الأولى: هي أنها محصنة، ويبدو أن حصنها هو بيت الزوجية. والقذف هنا يهتك حصنًا اجتماعيًّا ذا قيمة حضارية، وهو هتك ذو أطراف ثلاثة: فالمرأة وزوجها وأبناؤها كلهم سوف يلحقهم أذى القذف، بالإضافة إلى زعزعة استقرار الأسرة وأمنها، وهي من أمن المجتمع.

أوَلا يستحق القاذف الطرد من المجتمع ومن رحمة الرب؟.

أما **الصفة الثانية**: فإن الغفلة التي تعيشها هذه المرأة بسبب تسترها وابتعادها عن الخلافات الاجتماعية تجعل ظلمها أفحش، لأنها من المفروض أن تكون في مأمن من أذى الظالم.

إنها في الوضع الاجتماعي تشبه المدني في الوضع العسكري، كيف لا يجوز أن يمس بأذى.

الصفة الثالثة والأخيرة: الإيمان، حيث إن المؤمنة التي لا يصل أذاها لأحد، كيف تُقْذَف؟.

ثانيًا: واللعنة محور حديث البعض، حيث إن هناك من يتحرج منها بالنسبة إلى الظالم.

ولا ريب أن هذه الوسوسة هي من صنع الطغاة الذين أرادوا عبر التاريخ إسكات المعارضة، ألَّا يفكر هؤلاء المتحرجون من لعنة هؤلاء الظالمين في إنهم يشجعون بذلك على الظلم ويضيعون حق المظلومين، وعملهم هذا يسهم في نشر الفساد في الأرض.

ثالثًا: وهكذا يستحق مثل هؤلاء عذابًا عظيمًا.

هل هذا عذاب اللعنة الاجتماعية (حيث يطردون من رحاب المجتمع المسلم)، أم عذاب الضمير، أم عذاب المرض النفسي والجسدي، أم عذاب النار؟.

يمكن أن يكون أي واحد منها، أو حتى جميعها، والله المستجار.

* * *

بصائر وأحكام

١- الإحصان والغفلة والإيمان ثلاث قيم إذا اتسمت بها المرأة جعلت قذفها أشد حرمة.

٢- اللعنة جزاء الظالمين، ومن يتحرج منها قد يساهم بذلك في الجريمة.

٣- النهي عن المنكر درجات أضعفها الإنكار بالقلب وأوسطها الإنكار باللسان ولعل اللعنة تشملها.



هكذا تشهد الجوارح!

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾

* * *

تفصيل القول:

لأن الجريمة أيًّا كان نوعها، خلاف فطرة البشر، ومحكومة بوجدان البشر؛ فإن الإنسان لا يقدم عليها إلا بعد تبريرها والظن بأنه سيبقى آمنًا من عقابها. وهكذا جاءت الآية الكريمة صاعقة في وجه من يفكر بارتكابها. كيف؟.

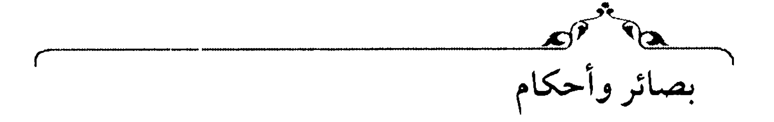
أولًا: لأن أقرب الجوارح إلى القلب اللسان الذي ينطق عن الإنسان، فإذا انقلب اللسان على صاحبه لم يعد يعبر عن الكذب الذي يحاول المجرم إلقاءه إليه، بل عن الحق الذي يعكسه وجدان الإنسان. ولا تدري هل لأن اللسان يومئذٍ لا يعبر عن النفس الأمارة بالسوء، بل عن النفس اللوامة، أو لأنه أساسًا لا يعكس إلا إرادة الرب التي

هي فوق إرادة القلب؟.

ثانيًا: أما الأيدي، وهي الجوارح التي يبطش بها الإنسان عادة وتقوم بالكثير من أفعاله، فهي التي لا تنطق في الدنيا ولكنها تأمر اليوم للقضاء الفطري الحق، وكذلك الأرجل التي هي الأخرى أدوات الجريمة.

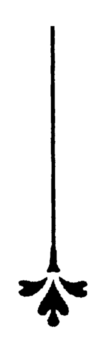
وهكذا لا يمكن لأحد أن يتهرب من العذاب العظيم.

* * *



بصائر وأحكام

* على الانسان أن يتمسك بالصدق ولا يدع فجوة بين الحق وما يقوله أو يمارسه، لكيلا تشهد عليه جوارحه.



يومئذ يوفّيهم اللهُ دينهُم الحقّ

﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾

* * *

تفصيل القول:

يسمى الإسلام دينًا، ويوم القيامة يوم الدين، والجزاء دينًا.

ما هو الجامع بين معاني هذه الكلمات؟ وما هو جزاء هؤلاء الحق، وما هي العلاقة بينه وبين البصيرة المعرفية الأولى أن الله هو الحق المبين؟.

أولًا: إذا كان الجزاء هو الدين، فإن هذا الجزاء الحق يعتمد معايير سليمة، وإلَّا لم يكن حقًّا. ويجمع دين الله الحنيف تلك المعايير (القيم - الميزان - الأحكام).

وهكذا الدين الإسلامي منظومة من الأحكام الثابتة التي على

أساسها تتم مجازاة الناس؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

أما يوم القيامة فهو يوم الجزاء، فهو يوم الدين.

ثانيًا: ميزان الجزاء يعكس تمامًا وبدقة متناهية سنن الله سبحانه الحاكمة بإذنه تعالى على الكائنات.

إن ما تعرّفه علمنا من قوانين منطقية ورياضية وفيزيائية وكيمائية واقتصادية وغيرها مما يبحث عنها العلم في سائر حقوله، جزء بسيط من السنن التي قدرها الرب تعالى للكائنات التي خلقها. وتلك السنن (الأنظمة الكونية التي قدرها ويجريها الرب) تمثل -في الوقت ذاته- تجلِّيًا لأسماء الله. فالله مقدر ومدبر ومهيمن وقائم بالقسط، وكل هذه الأسماء الحسنى تتجلى في تلك الأنظمة (السنن) التي نجدها جارية وحاكمة في الكائنات من أصغر ذرة إلى أكبر مجرة.

إذًا؛ الله سبحانه وتعالى هو الحق، لأن له الأسماء الحسنى، ولأنه تتجلى أسماؤه في سننه التي قدرها ويدبرها لحظة بلحظة في كل شيء، وأنه حق مبين.

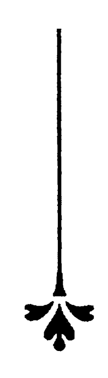
ثالثًا: يوم القيامة وحينما يصل كل إنسان إلى جزائه العادل، في ذلك اليوم تبلو السرائر وترتفع الغشاوة التي حجبت مشاعرنا هنا في الدنيا، فإذا بهؤلاء المجرمين الذين انتهكوا ستر الغافلات واتهموهن، إذا بهؤلاء الذي ظنوا أَنْ لا جزاء يطالهم، إنهم ليسوأ يواجهون الجزاء فقط، بل يعلمون ما وراء ذلك الجزاء من أسماء الله الحسنى، وأنه هو الحق المبين.

* * *

بصائر وأحكام

١- القيم المثلى وميزان العقل وبصائر الوحي وأحكامه، هي معايير للجزاء يوم الدين، وهي تعكس سنن الرب في خلقه، وتلك السنن هي تجليات لأسمائه الحسنى.

٢- على الإنسان أن يعتمد معايير الدين الحق في منهج تفكيره وبرنامج حياته، لكيلا يضل عن الحق فيلقى جزاءً لم يكن يحسبه.



الطيبات للطيبين

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦) ﴾

* * *

تفصيل القول:

١ - ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ ﴾

أكثر من تفسير مطروح لهذه الآية وما فيها من حقائق، فما هي؟.

أولًا: الكلمات التي يطلقها الناس على بعضهم لا تخضع لأهوائهم، بل لمعايير الحق؛ فلو اتهم أحدهم عالمًا بالجهل، أو بريئًا بالسرقة، أو رسولًا بالكذب، أو عفيفةً بالفاحشة.. فإن السب سوف يرجع إلى الساب. لماذا؟.

لأن الله سبحانه هو الحق المبين، وهو قائم بالعدل، وهو يعيد كل شيء إلى أصله.

وهكذا الكلمات الخبيثة تليق بالخبيث ذكرًا أو أنثى.

ثانيًا: كما الكلمات كذلك الأشخاص، فإن الرجال الخبيثين يختارون نساءً خبيثات، وكذلك العكس. أوَليس الطيور على أشكالها تقع؟ كذلك النفوس تميل إلى شاكلتها.

٢- ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾

لماذا هذا التكرار في بيان هذه المفارقة، هل للتأكيد فقط، أم وراءه أمر آخر؟.

قد يكون الأمر كذلك، ولكن هناك بصائر أخرى نستفيدها من الآيات:

أولًا: المؤمن عزيز بالله سبحانه، ويهتم بسمعته اهتمامًا كبيرًا، وفي دعاء النبي إبراهيم عليه السلام هذه الكلمة الرائعة ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾[1]، ذلك أن المؤمن يسعى جاهدًا ليعيش نظيفًا بعيدًا عن أي شائبة أو شين.

من هنا يسعى الأعداء لإيذائه بالكلمة الخبيثة في محاولة لمنعه من ممارسة دوره الجهادي. ومن هنا كان من أعظم صفات حزب الله أنهم لا يخافون لومة لائم.

قال الله تعالى: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ﴾[2].

(١) سورة الشعراء، آية: ٨٤.

(٢) سورة المائدة، آية: ٥٤.

ثانيًا: وهكذا أعلن الرب عز وجل براءة المؤمنين من تلك التهم الرخيصة، وأضاف أن لهم -جزاء صبرهم على أذى التهم- مغفرةً ورزقًا كريمًا. فكأن شماتة الأعداء تحط ذنوبهم، وأذاهم يصبح للمؤمنين رزقًا فيه الكرامة، تلك الكرامة التي تقابل الإهانة التي حاول الأعداء النيل منها.



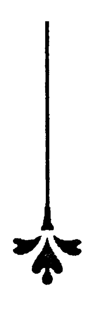


بصائر وأحكام

١- السب يعود إلى من يستحقه، فإن لم يُشَخَّص الهدف ارتد على قائله.

٢- لأن المؤمن عزيز بالله فإنه يحافظ أبدًا على سمعته ولكنه -مع ذلك- لا يأبه بلوم اللائمين.

٣- لا بد أن يختار الطيب الطيبة، والطيبة تختار الطيب، لأن الله سبحانه خلقهما لبعضهما.



من آداب دخول البيوت

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

* * *

تفصيل القول:

١ - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ﴾

إذا تدبرنا في سياق آيات الذكر في سورة النور نجد أن الكتاب الحكيم، شرّع في تحصين الأسرة ببيان حرمة الزنا وحدّه، ثم بأحكام القذف وحدّه، وألحقه بحكم اللعان عند قذف الزوج لزوجته، وفصل الحديث بعدئذٍ ببيان حرمة الإفك، وهو الآن يحدثنا عن حريم البيت، فما هو هذا الترتيب، وما هو حدّ البيت كموقع مادي للأسرة؟.

أولًا: إذا انتشرت الفاحشة في المجتمع وانهارت قيمة الخصوصية، فهل ينفع استحكام أسوار الدور؟.

من هنا كان الحديث أولًا عن حرمة الزنا، الذي يهدم أساس الخصوصية في العلاقة الجنسية، وبعد ذلك جاء الحديث عن حصانة الأسرة ضد القذف (سواءً من خارج الأسرة أو من داخلها) لكي تبقى حرمة البيت في النفوس سليمة عن ألسنة العابثين.

وجاءت قصة الإفك وعبرتها لمواجهة المؤامرات السياسية التي تتخذ من الجنس وسيلة لزعزعة استقرار المجتمع. والآن حيث اكتملت أركان الأسرة القانونية، بيّن أدب أحكام البيوت وحرمة التسلل إليها، لتبقى الأسرة آمنة داخل حصن الزوجية.

ثانيًا: باستثناء بيت الإنسان نفسه، لا يجوز دخول أي بيت من دون استئناس وسلام. فما هو الفرق بين السلام والاستئناس؟.

ألف: الاستئناس (من مادة الأنس) هدفه تعريف الأسرة بوجود غريب يريد دخول البيت، وقد يكون رفع الصوت بالتكبير والتهليل، أو بدق الباب والجرس، أو بأي نوع آخر من الإخبار.

باء: بينما السلام - عادة - يكون عند معرفة صاحب البيت بوجود شخص، فيهدف إلقاء السلام تعريف شخصية الطارق كما يهدف الاستئذان؛ لأن الذي يسلم ينتظر الجواب، فإن ردوا عليه وأذنوا له دخل.

ثالثًا: السلام هو شعار الإسلام، وهو يعكس روح السكينة والأمن والتسليم للنظام الحاكم.

والـذي يسـلم عـلى أهـل البيـت، يبعـث في نفوسـهم دواعـي الاستقرار. لماذا؟.

لأن أي تـلاقٍ بـين اثنـين لـه هيبة وزخـم عصبي، ومـع التحية والسـلام سـوف يسـتريح الطرف الثاني وتهـدأ فورة أعصابـه ويكون اللقاء بلا توتر عصبي إن شاء الله تعالى.

٢- ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

التذكـر يعنـي اسـتعادة المعلومـة التي غفـل عنها الشـخص أو نسيها، فماذا تعني هنا؟.

أولًا: بعـض الأحـكام الشرعية هي واضحـة للعقل، بحيث لا تحتاج معرفتها إلا إلى لفت نظر أو التذكرة، وهذا الحكم منها.

ثانيًـا: إن النظـام الاجتماعي القائم على أسـاس احـترام الناس بعضهم بعضًا خير للجميع، لأنك اليوم زائر وغدًا مزور؛ فاذا التزمت بـآداب العـشرة فلم تفزع الناس، بل استأنسـت معهـم؛ وما اقتحمت دورهـم، بـل سـلمت أولًا، فإنك سـتبقى آمنًا في بيتـك وتعرف أنه لا يفزعك أحد ولا يقتحم عليك دارك.

ونحـن اليوم، حيث انتشرت أمـراض الأعصاب، نعرف مدى أهمية مثل هذه الوصايا التي تبعث السكينة في النفوس، وتجعل البيوت كهفًا للراحة وذات حرمة اجتماعية.



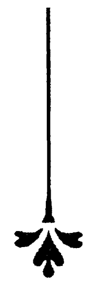
بصائر وأحكام

١- على المجتمع محاربة الفاحشة أولًا، ثم تحصين البيوت بالأسوار والأنظمة.

٢- السلام شعار الإسلام، ويعكس التسليم للأنظمة والأعراف المرعية.

٣- لا يجوز اقتحام بيوت الناس من دون إذنهم، ومن الأدب الاستئناس أولًا ثم السلام ليعيش الجميع في هدوء بعيدًا عن الضوضاء وعن التوتر.

«جاءت قصة الإفك وعبرتها لمواجهة المؤامرات السياسية التي تتخذ من الجنس وسيلة لزعزعة استقرار المجتمع. وحيث اكتملت أركان الأسرة القانونية، بيَن أدب أحكام البيوت وحرمة التسلل إليها، لتبقى الأسرة آمنة داخل حصن الزوجية.



حرمة البيت ركن المسؤولية

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨)﴾

* * *

تفصيل القول:

١ - ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ﴾

قد يكون البيت فارغًا فلا يجوز دخوله إلا بعد الاستئذان من أصحابه، وقد يكون مشغولًا بمن لا يأذن بدخوله، وفي كل هذه الحالات يجب احترام حق الناس.

والسؤال: ما فوائد هذا الحكم؟.

أولًا: النظام الاجتماعي لن يستقر من دون احترام الملكية الفردية، التي من أبعادها احترام ملكية حق التصرف في البيت. وهذا الحق هو الذي قد لا ينتبه إليه كثير من الناس، فإذا التزم الناس به فمن الأولى أنهم سوف يحترمون سائر الحقوق.

ثانيًا: المسؤولية التي لا بد أن يتبعها كل فردٍ من أفراد المجتمع، تتجلى أول الأمر في مسؤولية رب البيت عن أسرته. وكل مسؤولية لا بد أن تكون بإزائها صلاحيات وحقوق. وهكذا إذا عرف الناس أنهم مسؤولون عن بيوتهم، وأنهم قد أوتوا من الصلاحية ما يكفي للقيام بهذه المسؤولية، فإنهم -عادة- سوف يستطيلون إلى مستواها، والاعتراف بحرمة البيت أحد أركان المسؤولية، حتى يكون رب البيت كما ملك في دولته.

٢- ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾

ما هذه الزكاة التي نجدها هنا وفي الآية ما بعد التالية، والتي قرنت بالفلاح في قوله سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾؟[1].

أولًا: الزكاة هي الطهر، وحينما ينشر المسلم الزكاة، فعليه أن يبقى بعيدًا عن عوامل التلوث. وإذا كانت البيوت مفتوحة أمام الناس فقد يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه، فقد يقع النظر إلى حيث يستدرج الفرد إلى الفساد.

ثانيًا: لأن للشيطان مكرًا خفيًا، فقد يتلوث الفرد حتى بعد صد الأبواب. من هنا حذر ربنا سبحانه وتعالى من أنه عليم بما تعمل.

* * *

(١) سورة الشمس، آية: ٩.

بصائر وأحكام

١- الملكيـة الفرديـة واحترام خصوصيات الأفـراد، هي ركيزة النظام الاجتماعي ومحورها حرمة البيوت.

٢- في مسـؤولية الفرد عن أسرته أجلى صور المسـؤولية، وإزاء كل مسؤولية صلاحية بقدرها.

٣- عـلى المسـلم أن يسـتأذن قبـل الدخـول في بيـوت النـاس، وألّا يـتردد في الرجـوع إذا لم يـؤذن له، وأن يتجنـب خائنة الأعين عند الاقتراب من البيوت.



المنافع هدف الأبنية العامة

﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

* * *

تفصيل القول:

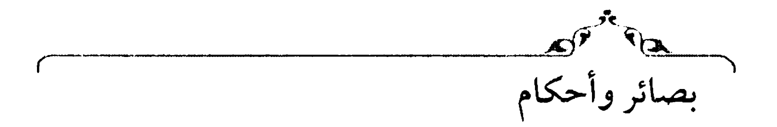
حينما يشرّع الإسلام حكمًا، ينظر إلى أبعاده، ليكون قابلًا للتنفيذ. كيف؟.

أولًا: حينما يأمر الإسلام بالصوم يضعه عن المريض والمسافر، وحينما يأمر بالصلاة يشرّع صلاة الخوف في الحرب، ويأمر بقصر الصلاة في السفر، ويأمر بذكر الله عند الضرورة في المضاجع.

وهنا حين نهى عن دخول البيوت من دون إذن أهلها، ذكر أن هناك بيوتًا جلا عنها أهلها، أو هي أساسًا مبنية للناس جميعًا؛ مثل المنازل في الطرق الخارجية.

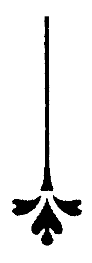
ثانيًا: الهدف من استخدام البيوت، المنافع المتوخاة منها؛ مثل الاستراحة فيها والتحصن بها مخافة العدو وما أشبه. ولكن يجب أن يعرف العبد أن الرب محيط به علمًا، فلا يتجاوز حدّه في الانتفاع بالبيوت، وعدم استخدامها في غير أغراضها، وأيضًا عدم إلحاق الضرر بها.





بصائر وأحكام

* هدف دخول البيوت غير المسكونة توخي المنافع، مثل الاستراحة وتوقّي الحر والبرد والعدو.



لكي يبقى المجتمع طاهراً

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾

* * *

تفصيل القول:

لكي يبقى المجتمع نظيفًا من العلاقة الجنسية غير الشرعية (الزنا – اللواط)، لا بد أن تُصد كل الأبواب التي قد تؤدي إليها؛ مثل النظر المريب، أو التبرج، أو اقتحام البيوت بلا استئذان، أو ما أشبه. لماذا هذا التشديد؟.

أولًا: بناء الأسرة صعب، ومهامه كبيرة، ووسوسة الشيطان وضغوط المعيشة وغيرها عقبات في سبيل إقامة الأسرة وتحمل مسؤولياتها، ولكن من جهة أخرى شهوة الجنس عارمة. وهكذا تتغلب هذه على تلك الصعاب، شريطة ألا تجد مجالًا لإشباعها إلا في إطار بناء الأسرة.

أما إذا اسـتطاع الفتى والفتاة إشباع الشهوة الجنسية بسهولة من دون تحمـل أعبـاء الأسرة، فإن ذلك ينتهي إلى الزهـد فيها، وبالتالي إلى زعزعة أهم بناء اجتماعي.

ثانيًـا: النظـر أول تواصل بين الجنسـين، وإذا تحقق النظر الحرام اتصل بالتحدث ومن ثم بالعلاقة غير المشروعة.

ومن هنا سـد الإسـلام هذا الباب رأسًـا واعتبر النظر سهمًا من سـهام إبليس، كما جاء في حديث شريف مروي عن أبي عبدالله الإمام جعفـر بن محمـد الصادق عليه السلام، حيـث قال: «**النَّظَرُ سَـهْمٌ مِنْ سِـهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومٌ، وَكَمْ مِنْ نَظْرَةٍ أَوْرَثَتْ حَسْرَةً طَوِيلَةً**»[1].

ولعل الآية تشـير إلى ذلك، حيث جاء الحديث عن حفظ الفرج بعد تحريم النظر، وكأنه بتجنب النظر يحفظ الفرج.

وهنـاك احتمال آخـر، أن المراد مـن حفظ الفرج سـتره، فيكون المعنى: أن على المؤمن أن يغض نظره حتى لا يركز على الأجنبية، وعليه أيضًا أن يحفظ فرجه عن الناس.

ثالثًا: العين الخائنة التي توزع النظرات المريبة يمنة ويسـارًا، كما الفـم النهم الذي يبتلع ما يضر ولا ينفع شـيئًا. فكـما أن هذا الفم يملأ المعدة بالسموم، كذلك هذه العين تملأ القلب بالوساوس.

فأنى له أن يتذكر، وأنى له أن يستوعب حبًّا خالصًا وودًّا ساميًا؟.

إذا أردت قلبًـا نظيفًا، فتجنب النظرات الخائنة. ومن أجل ذلك راقب ربك الذي هو خبير بما تصنع.

---

(١) بحار الأنوار: ج١٠١، ص٤٠.

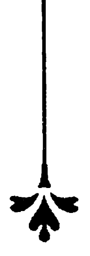
بصائر وأحكام

١- لأن مسؤولية الأسرة كبيرة، فإن الإسلام صد أبواب الشهوة إلَّا من باب النكاح.

٢- النظر فاتحة العلاقة بين شخصين، ولا بد من اجتناب النظر المحرم، لأنه قد يورث حسرة طويلة.

٣- يجب على المؤمنين غض النظر الذي قد يتوقف على تجنب مواطن الوقوع في النظر المحرم، ويجب عليه حفظ الفرج وستره عن الأعين، ويجب التحفظ على الفرج من الوقوع في الحرام.

» النظر أول تواصل بين الجنسين، وإذا تحقق النظر الحرام اتصل بالتحدث ومن ثَمّ بالعلاقة غير المشروعة.



المرأة والاثارات الجنسية

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

* * *

تفصيل القول:

١ - ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾

لماذا القرآن الكريم بيّن حكم النساء منفصلًا عن حكم الرجال،

بالرغم من قاعدة المشاركة في الأحكام؟.

أولًا: لأن أشد ما يتمايز به الذكر والأنثى إنما هو في المسائل الجنسية. ولعل شخصًا يزعم عدم وجود فارق بينهما. كلا؛ المرأة عليها ألَّا تنظر إلى الرجال بريبة، كما أن عليها أن تصون فرجها عن الرجال وعن النظر حتى من قبل النساء.

ثانيًا: والغض لا يعني الغمض، بل عدم التركيز وعدم الريبة.

ثالثًا: ولقد استثنى الكتاب ما ظهر من الزينة. ويبدو من بقية الآية، أن الظاهر ليس سوى الوجه والكفين حسبما نذكره إن شاء الله لاحقًا. وهذا الاستثناء جعل حكم الحجاب مرنًا واقعيًّا، مع أوامر الشريعة التي تعم الرجال والنساء من القيام بتسخير ما في الأرض لمصلحة البشر ومن العمل الصالح ومن الحج والصلاة وإقامة الشعائر وغيرها.

وما يظهر من الزينة مما على الحاجب والعين أو في اليد مثل الخاتم، أمر مشترك عادة بين الذكر والأنثى. فالعينان والخد والحاجبان وما أشبه من الزينة الظاهرة للمرأة، هي بعينها موجودة عند الرجل. وإذا كانت العين عند الفتاة ساحرة مما تغري الرجال، فقد تكون أيضًا جميلة عند الفتى مما تغري النساء.

ولذلك جاء في الحديث الشريف المروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام حين سئل: «مَا يَحِلُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يَرَى مِنَ الْمَرْأَةِ إِذَا لَمْ يَكُنْ مَحْرَمًا؟.

قَالَ عليه السلام: **الْوَجْهُ وَالْكَفَّانِ وَالْقَدَمَانِ**»[1].

وروي عن أبي عبدالله عليه السلام، «فِي قَوْلِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِلَّا

(١) الفروع من الكافي: ج٥، ص٥٢١.

مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، قَالَ عليه السلام: **الزِّينَةُ الظَّاهِرَةُ الْكُحْلُ وَالخَاتَم**»[1].

رابعًا: إذا كان الخمار هو ما يوضع على الرأس ويسدل على طرفي الوجه، فإن حكم الله بجمعه حول الصدر بحيث يستر أيضًا الفتحة التي قد تبدو منها زينة الصدر وما فيه من النهدين، فإن الآية قد أوضحت كل ما يجب ستره من مظاهر الزينة؛ مثل الشعر والصدر.

وباعتبار أن الثياب المعتادة عند الناس في كل زمان تستر الذراعين والرجلين وسائر أقسام الجسد، فإن الصورة تكتمل عندنا فيما يجب ستره من الرأس والشعر والصدغين وفتحة الصدر (الجيب) وسائر أبعاد الجسد؛ مثل الظهر والبطن والرجلين واليدين إلَّا بقدر الحاجة.

٢- ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾

هذه الجملة من الأقارب يشكلون الحلقة الأولى للأسرة، فما الذي يدعو إلى جواز إبداء الزينة؟.

أولًا: كما أن المصلحة تقتضي إبعاد المرأة عن محيط الذكران لتنظيم العلاقة الجنسية وتحديدها الدقيق، كذلك المصحلة تقتضي إيجاد محيط عائلي للمرأة للتواصل مع الأقارب والتعاطي معهم في شؤون الحياة المختلفة، وليكونوا أدوات وصل بينها وبين المجتمع الكبير، وهم الذين نسميهم بالمحارم.

(١) الفروع من الكافي: ج٥، ص٥٢١.

وهكذا وسّع الإسلام إطار إبداء الزينة في إطار الأسرة (من الآباء والأبناء) باعتبار الدين الحنيف دين واقعي ينظر إلى كافة المصالح.

ثانيًا: الملاحظ وحدة التعبير في إبداء الزينة بين البعولة والآباء والأبناء، بالرغم من وجود حدود فاصلة بينهما. فالزوج يجوز له ما لا يجوز لغيره من المحارم، ولكن الحديث عنها لا يشمل المضاجعة، بل المعايشة التي تتم في الأسرة بين الرجال وحدهم أو بينهم وبين المحارم من النساء، وبالعكس بين النساء لوحدهن وبينهن وبين محارمهن من الرجال.

والتعايش هذا يجعل من الأسرة الكبيرة -كما الأسرة الصغيرة- محور اهتمام الإسلام، مما تقتضي مصلحة التعايش والتكامل والتعاون فيما بين أفرادها، وهذا سر يجب تفهمه ومعرفة أبعاد الحكمة فيه.

فكما لا يجوز التبرج، لا يجوز التزمت، لأن لكل من إبداء الزينة وإخفائها حكمة في الإسلام يجب الاهتمام بها.

٣- ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾

المحيط الأوسع للأسرة يتمثل في الذين يلتحقون بها من الخدم والأطفال، فما هي حكمة ذكر هؤلاء؟.

أولًا: النساء اللاتي يترددن على الأسرة من صديقاتهن أو قريباتهن أو جاراتهن أو المختلطات بهن، إنهن وفي محيط البيت أو المكان الذين يجمعهن مع بعضهن، تبدي المرأة زينتها لهن. ويبدو أن معنى ذلك: أن المرأة تبدي زينتها في محيط مغلق، والله العالم.

ثانيًا: كانت الإماء يخدمن النساء ويتعايشن أيضًا معهن، وكانت المرأة تبدي زينتها لهن. وكذلك -على قول البعض- العبيد باعتبار ضرورة التعايش معهم في محيط الأسرة، والله العالم.

ثالثًا: في المجتمعات القديمة كانت تتواجد فئة البُلْه، وهم الذين لم تكن لديهم حاجة جنسية بسبب المرض أو الإخصاء، وكانوا يتداخلون مع العائلة، وكانت ضرورات التعايش تفرض عدم الاحتراز منهم من قبل المرأة. فتسهيلًا لأمر التعايش سمح الإسلام للمرأة إبداء زينتها لهم.

رابعًا: كان الأطفال الذين يعيشون في محيط الأسرة، هم بدورهم وبسبب عدم انفتاحهم على قضايا الجنس، كانوا يتداخلون في محيط البيت مع النساء، وسمح الإسلام للمرأة إبداء زينتها لهم.

خامسًا: عند التأمل في موارد جواز إبداء الزينة، هنا نجد أن المحور هو ضرورة التعايش مع عدم خوف الفتنة بسبب عدم وجود حاجة جنسية. ولعل الفقهاء عند دراسة معمقة لهذه الحكمة، يجدون مصاديق أخرى لها، خصوصًا عند التدبر في قوله سبحانه: ﴿غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾، وكذلك قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾، والله العالم.

٤- ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ما هذا الضرب بالأرجل، ولماذا الأمر بالتوبة في خاتمة الآية؟.

أولًا: هناك من الزينة ما تخفى على الناس. وقد تدفع شهوة

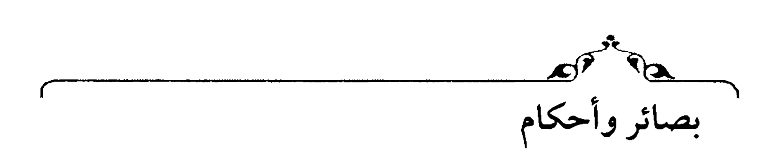
الإثارة عند المرأة بإظهارها، كما إذا هي قد لبست الأساور والأحجال، وبشدة ضربها للرجل على الأرض قد تثير الرجال بصوت زينتها.

ونستفيد من الآية: أن كل ما يثير الرجال من الزينة يجب عليها ستره؛ فمثلًا إذا كانت قد تعطرت فعليها ألَّا تثير الرجال به، وكذلك إذا لبست ما يستر ظاهر جسدها إلا أنه يبرز مواضع الزينة منه؛ مثل الصدر والخصر والسيقان، وكذلك إذا لبست الأزياء المثيرة.. والله العالم.

ثانيًا: إن جماح الشهوة الجنسية قد تعصف حتى بالمؤمنين الأتقياء، فإذا بالنظرة المريبة أو المنظر الفاتن أو الابتسامة المثيرة أو التفكه بالكلمة الصلفة.. وغيرها كثير، فاذا بها توقع المؤمن في المعصية. وهكذا كان لزامًا على المؤمنين الاستمرار في التوبة إلى الله طلبًا للفلاح.

وواضح أن الأمر يشمل المؤمنات، لقاعدة الاشتراك، والله المستعان.

***



بصائر وأحكام

١- لأن الدين نهج وسط بين التشدد والميوعة، فقد أمر بستر الزينة إلا ما ظهر منها من الوجه والكفين، كما استثنى المحيط العائلي من الستر لمصالح في التواصل مع المجتمع عبر الأسرة (المحارم)، ومن تلك المصالح التعاون بين الناس على البر والتقوى. ومن النهج الوسطي السماح للطفل والتابعين غير أولي الإربة بالتواصل مع النساء في محيط البيت.

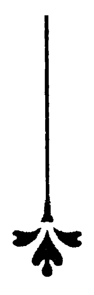
٢- لا فرق بين النساء والرجال في وجوب الغض (وعدم النظر ريبةً)، وفي وجوب حفظ الفروج.

٣- لقد استثنى الكتاب ما ظهر من الزينة من الوجه والكفين (وفي بعض الروايات إضافة القدمين).

٤- والخمار هو الذي يغطي الرأس ويسدل على الطرفين ثم يجمع تحت الذقن ليستر جيب الصدر، وهكذا تستر المؤمنة كل جسدها من الأجنبي.

٥- أبناء الأسرة الذين ذكرهم القرآن، كما التابعون من الطفل وغير أولي الإربة من التابعين للأسرة (كالبله) هم أيضًا محور استثناء الكتاب من وجوب ستر الزينة، حيث نعرف أن سائر الناس كلهم يدخلون في إطار وجوب الستر.

٦- لا يجوز أن تضرب المرأة برجلها الأرض، ليعلم ما تخفي من زينتها. ولعله يلحق به كل ما يثير الرجال.



النكاح سنة فطرية

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾

❊ ❊ ❊

تفصيل القول:

١ - ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ﴾

النكاح سنة فطرية، ولكن القرآن يبين أحكامه التي تؤكد هذه السنة وتشذبها وتجعلها منسجمة مع سائر السنن والأحكام، ومن ذلك الأمر بالسعي للتزويج. كيف؟.

أولًا: بالرغم من أن المستفيد الأول من النكاح هما الزوجان، إلا أن للمجتمع نصيبًا في منافع الزواج، ومنها استقراره وضمان أمن الأسر فيه. وهكذا كان لزامًا عليه السعي وراء التزويج للأيامى

المطلقـات واللاتي مات عنهن أزواجهن أو فاتهن قطار الزواج لسـبب أو آخر.

حقًّا؛ إن المجتمع الذي يرعى حال الحلقات الضعيفة فيه لجدير بالاحترام والتقدير.

ثانيًـا: الإمـاء والعبيـد في المجتمع الإسـلامي كانوا أشـبه شيء بالأجانـب والمهاجريـن واللاجئين وغيرهـم في المجتمعـات الحديثة، وهم أيضًا بحاجة إلى الزواج وتكوين الأسرة ومحاولة دمجهم بالمجتمع من خلال اختيار الصالحين منهم لمساعدتهم في الزواج.

وهذا -لعمري- يمثل منتهى الحكمة والرحمة في النظام القرآني. أمـا الحكمة، فـإن مثل هـؤلاء لو شـملتهم رعاية المجتمع الإسـلامي شـجع أقرانهـم باتباع نهجهم في الصـلاح. وبالتالي سـوف تبدأ عملية الاندماج بيسر، بينما إذا تركوا وشـأنهم فإنهم سوف يشكلون مادة قلق دائم في المجتمع.

وأمـا الرحمة، فإن الإسـلام دين رب العالمـين الذي لا يفرق بين شـعب وآخر، وإنما يعتبر أكرمهم عند الله أتقاهـم، لا قومية معينة ولا شعب ولا جماعة.

٢- ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

لماذا ذكَّر السياق بقدرة الله على الإغناء هنا، وما هي علاقة ذلك بالإنكاح والتزويج؟.

أولًا: تبقى عقبة الفقر هي العقبة الكأداء أمام الزواج، وإذا كان الأمر يتعلق بغير الزوجين فالمشـكلة أعقد، إذ قد يحجم الشـخص عن

تشـجيع الزواج ويبرر ذلك بالقول: أنى لهـؤلاء الأيامى أو المهاجرين من إدارة شـؤونهم بعد الـزواج، وربما أصبحوا عالة على غيرهم. كلا؛ إن الله يغنيهم عند فقرهم.

ثانيًا: كيف يغني الرب سبحانه الفقراء بعد الزواج؟.

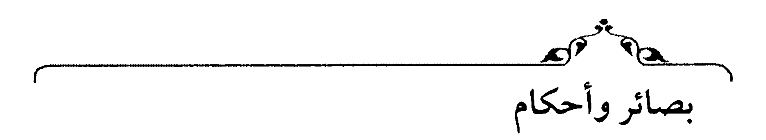
الجـواب: إن ربنا قـادر على ما يشـاء، ولكن الحكمـة التالية قد تكون جوابًا لعامة الناس:

» النكاح سنة فطرية، ولكن القرآن يبين أحكامه التي تؤكد هذه السنة وتشذبها وتجعلها منسـجمة مع سـائر السنن والأحكام، ومـن ذلك الأمر بالسعي للتزويج.

إن القوة المحركة للاقتصاد هي الحاجة، وكلما كانت الحاجات أكثـر إلحاحًا كانت أكثر فاعليـة، والـزواج وتكويـن الأسرة هـي -في النهاية- مسـؤولية وإحسـاس عميق بالحاجة، لا أقل عند الزوج، مما يدفعه للعمل ويرزقه الله سبحانه. أوَلم يقولوا: الحاجة أمّ الاختراع؟.

ثالثًا: والله واسع، وفضله يشمل الناس جميعًـا، وهـو عليـم بمواقـع الحاجـة وكيفيـة قضائها وإبرامها.





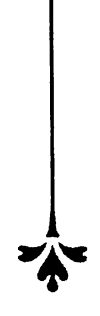
بصائر وأحكام

١- الـزواج ليس فقط حاجة شـخصية لكل فـرد، بل هو أيضًا مسؤولية اجتماعية، لأنه يساهم في استقرار المجتمع وازدهاره.

٢- من خلال انتخاب الصالحين من الطبقات الضعيفة (الأيامى - العبيد - اللاجئين) يساهم المجتمع في دمجهم معه ومن ثم تحويلهم إلى طاقة إيجابية.

٣- تكوين الأسرة يحرك عجلة الاقتصاد، لأنه يثير الحاجة الكامنة عند الرجال.

٤- على المجتمع الإسلامي أن يساهم في ترويج الزواج وبناء الأسرة الفاضلة.



ثلاثة أحكام

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣)﴾

* * *

تفصيل القول:

١ - ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ﴾

ثلاثة أحكام نستفيدها من هذه الكلمات، فما هي؟.

أولًا: إن على الإنسان أن يبحث عن وسائل العفة، فإذا كان أعزب فلا يختلط بالنساء ولا يشاهد الأفلام المثيرة، بل وأيضًا يصوم حتى يكبح جماح الشهوة.

وهكذا جاء في الحديث: «**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، عَلَيْكُمْ بِالْبَاهِ فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِيعُوهُ فَعَلَيْكُمْ بِالصِّيَامِ فَإِنَّهُ وِجَاؤُهُ**»[1].

ثانيًا: لا تتاح فرصة النكاح لكل إنسان، فقد يكون الفرد في سفر، أو مشغولًا بدراسة صعبة، أو مجاهدًا مطاردًا، أو يمنعه الفقر، أو لم يجد الكفؤ.. وعلى أي حال فإن النكاح (الزواج) غير مقدور له، فإنه يعمل جاهدًا من أجل الحصول على وسائل العفة.

ثالثًا: إن الله سبحانه هو الرزاق، فليكن سعي الإنسان عن طريق صحيح، ولا يجوز أن يبحث عن سبل ملتوية للحصول على المال. وهكذا كل حاجة أنى كانت ضرورية لا تسوِّغ للمؤمن أن يجترح السيئات أو يتجاوز حدود الشرع، بل عليه أن يُصبِّر نفسه حتى يتسنى له السبيل المشروع إلى الغنى، وهو فضل الله عليه.

٢- ﴿**وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ**﴾

لماذا جاء حكم الرقيق في كتاب ربنا الذي لا يتغير حسب الظروف، ألم ينقرض هذا الوضع بقانون تحرير العبيد الدولي، وما هو هذا الكتاب الذي يجب لمن يريده ويكون صالحًا؟.

لنقرأ بعض البصائر في هذا الأمر:

أولًا: صحيح أن العبودية -بمفهومها العام- قد أصبحت من التاريخ الأسود، خصوصًا فيما يتصل بالواقعية الجاهلية الغربية التي استعبدت أحرار أفريقيا لتجعلهم أياديَ عاملة في أمريكا، بعد إبادة الهنود الحمر في تلك الأراضي

---

(١) الفروع من الكافي، ج٤، ص١٨٠.

المحتلة من قبل مجرمي إسبانيا المطرودين من بلادهم بقيادة كلمبوس.

بلى؛ صحيح ذلك إلا أن العبودية كجوهر لا تزال موجودة بأشكال أخرى. فلا تزال أفواج المهاجرين واللاجئين التي تحملهم القوارب وبطريقة غير قانونية إلى البلاد الغربية، ولا يزالون يُعاملون كالرقيق، حيث يحرمون مما جاء في ميثاق حقوق الإنسان.

أَوَليس من أساسيات هذه الحقوق حرية السكن في الأرض، فلماذا يطردون، ولماذا لا يمنحون حق المواطنة، وما الفرق بين إنسان غريب جاء من أوربا واحتل أراضي أمريكا وطرد منها أهلها وآخر يأتي اليوم من إفريقيا مسالمًا هاربًا من الجوع والمرض؟.

ناهيك عن الشعوب التي تضطهد جملة واحدة، أليس هذا في جوهره أسوأ من الرق حسب المفهوم القديم؟.

ثانيًا: حينما استوعبت الحضارة الإسلامية عشرات الشعوب، ودخل الملايين من البشر (ممن يسمون اليوم بالأجانب) في الدول الإسلامية، كان لا بد من نظام لدمجهم في الحياة الجديدة. ونظام المكاتبة كان واحدًا من الأساليب الناجحة، حيث إن السيد الذي هو من أهل البلاد والمتكفل بالأجنبي كان عليه أن يربي اللاجئ وينمي طاقاته، فإذا وجد فيه خيرًا وعرف أنه قد أصبح كفئًا ومواطنًا من الدرجة الأولى، هنالك يكاتبه، حيث يفرض عليه مالًا معينًا، ويدعه يعمل حتى يؤدي ذلك المقدار ثم يشتري حريته ويصبح مواطنًا كسيده تمامًا، له ما لغيره من الحقوق والواجبات.

ثالثًا: قد لا يستطيع هذا المكاتب أن يؤدي ما عليه من المال، فعلى الدولة أو المجتمع المسلم أو حتى سيده أن يدفع إليه من الحقوق الشرعية (مثل الزكوات) لمساعدته. وهذا المال، مال الله، ولا منة لأحد عليه.

رابعًا: لو أخذت الدول الحديثة بهذا النظام، وهو تأهيل اللاجئين والمهاجرين عبر فرض مقدار من المال عليهم بهدف تنشيطهم ومن ثم دمجهم في المجتمع، لكان في ذلك فوائد كبيرة للمجتمع، لأن اللاجئين والمهاجرين يملكون -عادة- روحًا وثابة تساهم في تطوير الحضارة.

٣- ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

ما هي علاقة هذه البصيرة بالسياق العام للسورة من تنظيم الأسرة؟. ولماذا ختمت الآية برجاء مغفرة الرب؟.

أولًا: الإماء، كما العبيد، كانوا ملحقين بالأسرة في النظام الاجتماعي، وكان لا بد من تنظيم العلاقة معهم وبيان ما خفي من أمورهم. فبالنسبة إلى العبيد كان لا بد من بيان الجانب الأساس وهو محاولة إصلاحهم ثم بيان ما ينبغي أن يعمل به، وهو دمجهم في الحياة الاجتماعية.

وأما بالنسبة إلى الإماء فإن نقطة الضعف العامة كانت استغلالهن جنسيًّا، الذي لا يزال مع الأسف مشهودًا في بعض البلاد مع الخادمات أو الفقيرات أو ما أشبه.

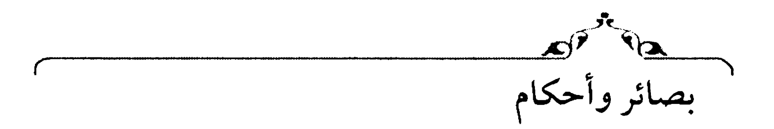
ثانيًا: ليس مفهوم الإكراه محدودًا بالاغتصاب أو الضغط على الأمة بأن تمارس الجنس لمصلحة سيدها أو سيدتها، بل الإكراه قد يعني دفع الأَمَةِ إلى هذا الطريق الملتوي عبر حرمانها من حقوقها، أو عدم تربيتها على مفاهيم الدين في النظام الاجتماعي الجديد، أو حرمانها من الزواج عندما تكون محتاجة إليه، وهكذا..

ثالثًا: لا بد من التأمل في قوله سبحانه: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾، والذي أستفيده من الآية الكريمة؛ أن الفتاة -أنى كان جنسها- عفيفة بفطرتها،

تريد صون نفسها من عبث المنحطين، وإنما تقع في الفاحشة بسبب إكراه المحيط، إما بتجويعها أو منعها من الزواج أو حتى اغتصابها.

وأنى كان فإن الفتاة لا تقع في فساد الجنس إلا بسبب المحيط، ولعله لذلك فتح الله لها باب التوبة حيث جعلها تطمع في غفران الرب ورحمته بعد الإكراه، والله العالم.

* * *



بصائر وأحكام

١- إصلاح العبيد (وكل ملحق بالأسرة) يكون بمكاتبتهم وتفعيل طاقاتهم، وإصلاح الإماء يكون بتزويجهن وعدم اتخاذهن سلعة جنسية.

٢- الفتاة -أنى كانت- تعتز بنفسها، ولا تريد أن تكون سلعة جنسية، إلا أن المحيط قد يجبرها على ذلك.

٣- على المسلم أن يتعفف -إن لم يتزوج- بإقصاء ما يثير فيه الجنس، وبالصيام فإن الصوم رجاء.

٤- ليكن سعي المسلم نحو الرزق عن طريق حلال، الذي بالرغم من صعوبته إلا أنه ممكن.

٥- على المجتمعات أن تستوعب اللاجئين والمهاجرين بإعدادهم تربويًا واقتصاديًا للمواطنة التامة تمهيدًا لدمجهم في المجتمع.



آيات القرآن آفاق المعرفة

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

* * *

تفصيل القول:

تكررت في هذه السورة هذه الكلمات المضيئات التي ذكَّرت بآيات الله وما فيها من البيان والمثل والموعظة، لماذا؟.

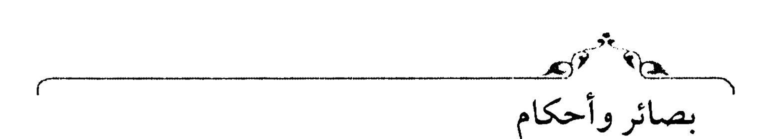
أولًا: عند افتتاح السورة ذكَّرنا الرب بتلك الآيات وأحقيتها بجملة من البصائر التي اتصلت بالأسرة وسورها، وهنا ذكرتنا بالأسرة الفاضلة التي تمثلت في بيت النبوة حيث مشكاة نور الوحي. وفي الآية (٤٥) بعد اثنتي عشرة آية حيث ذكرتنا ما بعدها من الآيات بالمجتمع الإيماني المتمايز عن المجتمع المنافق، وكأن الأسرة هي لبنة في بنيان المجتمع؛ إن صلحت صلح، وإن فسدت فسد.

ثانيًا: ليس القرآن كسائر الكتب يُقرأ ظاهره فحسب، بل ينبغي أن نتدبر فيها وراء الظاهر من الحقائق، لأن ما فيه آيات مبينات، وعلينا أن نستنبط منها الأحكام والمعارف، وبالتالي أن نجعلها -عبر التدبر- مفتاحًا للعلوم ونوافذ إلى حقائق الخلق.

ثالثًا: وفي القرآن أمثلة للقرون الخالية، كيف عاشوا، وبماذا عاشوا، وكيف انقرضوا، ولماذا.. والمهم عند دراسة تلك الأمم وعي عبرها، وفهم دروس حياتها، وتلك السنن التي جرت عليهم وسوف تجري على أمثالهم.

رابعًا: وليس الهدف من دراسة التاريخ فهم عبره فقط، وإنما تطبيقها والاتعاظ بها، وإنما يتعظ بالعبر من أوتي روح التقوى، والله المستعان.

* * *



بصائر وأحكام

* آيات القرآن مبيّنات تفتح أمامنا آفاق المعرفة، وعلينا أن نتعرف بها سنن الحياة لنتعظ بها ونزداد تقوى.



اللّه نورُ السماوات والأرض

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) ﴾

* * *

تفصيل القول:

١ - ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾

حينما وصف اللغويون النور، قالوا: إنه «الظاهر في نفسه المُظْهِر لغيره»(١)، فكيف وصف القرآن رب العزة بنور السماوات؟.

(١) لسان العرب، ج٥، ص٢٤٠.

أولًا: لم يتم وصف الرب بأنه نور، حيث لم يقل: ﴿ٱللَّهُ نُورُ﴾، بل وصف بأنه نور السماوات والأرض، فهو الذي ابتدعهما وخلقهما وأضاءهما، فهو نور النور ومنور النور.

ثانيًا: عند الحديث عن الرب لا يجوز أن نفكر في معدن العظمة، حيث الذات وحيث الاسم المكنون الذي لم يخرج منه إلا إليه، لأن عقولنا قاصرة ليس فقط عن معرفة ذاته، بل حتى عن معرفة الكثير من أسمائه، بل وعن معرفة مخلوقاته إلا بقدر ما يفيض ربنا علينا من العلم.

ثالثًا: إن كل شيء مخلوق هو آية خلقه، ودليل العقول إلى أسمائه، وهو الذي جعلها كذلك وأعطى خلقه القدرة على معرفة ذلك بإذنه. وقد جاء في دعاء الصباح لأمير المؤمنين عليه السلام: «**يَا مَنْ دَلَّ عَلَى ذَاتِهِ بِذَاتِهِ، وَتَنَزَّهَ عَنْ مُجَانَسَةِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَجَلَّ عَنْ مُلَائَمَةِ كَيْفِيَّاتِهِ**»[1].

وفي المناجاة الشعبانية تقرأ: «**وَأَنِرْ أَبْصَارَ قُلُوبِنَا بِضِيَاءِ نَظَرِهَا إِلَيْكَ حَتَّى تَخْرِقَ أَبْصَارُ الْقُلُوبِ حُجُبَ النُّورِ فَتَصِلَ إِلَى مَعْدِنِ الْعَظَمَةِ، وَتَصِيرَ أَرْوَاحُنَا مُعَلَّقَةً بِعِزِّ قُدْسِكَ**»[2].

رابعًا: إن الله الذي يفيض علينا لحظة بلحظة نور الوجود ونور القدرة ونور العلم، إنه إذًا نور السماوات والأرض. وهكذا نعرف أن الخلق لا ولن يستغني في وجوده وبقائه عن الرب المنان. وهكذا جاء في الدعاء المأثور: «**أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَكُشِفَتْ بِهِ الظُّلْمَةُ، وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مِنْ**

(١) مفاتيح الجنان، دعاء الصباح.
(٢) بحار الأنوار: ج٩١، ص٩٨.

أَنْ يَحُلَّ عَلَيَّ غَضَبُكَ أَوْ يَنْزِلَ بِي سَخَطُكَ»[1].

خامسًا: إن أول واجب علينا لدراسة المعارف الالهية أن نرفع مستوانا العلمي إلى منهج معرفة الشيء بآياته وأسمائه، وأن نُفرِّق جذريًّا بين منهج معرفة الخالق ومنهج معرفة المخلوق، وأن نقدس ربنا سبحانه عن القياس بمخلوقاته.

وقد جاء في دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة: «**إلهي تَرَدُّدِي فِي الْآثَارِ يُوجِبُ بُعْدَ الْمَزَارِ فَاجْمَعْنِي عَلَيْكَ بِخِدْمَةٍ تُوصِلُنِي إِلَيْكَ. كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِمَا هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ؟. أَيَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهِرَ لَكَ؟. مَتَى غِبْتَ حَتَّى تَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ؟ وَمَتَى بَعُدْتَ حَتَّى تَكُونَ الْآثَارُ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْكَ؟. عَمِيَتْ عَيْنٌ لَا تَرَاكَ عَلَيْهَا رَقِيبًا وَخَسِرَتْ صَفْقَةُ عَبْدٍ لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصِيبًا**»[2].

إن هذا المستوى الرفيع من عرفان الرب بحاجة إلى عروج روحي عند الفرد وتحول عقلي عظيم، والله المستعان.

٢- ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٖ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيْتُونَةٖ لَّا شَرْقِيَّةٖ وَلَا غَرْبِيَّةٖ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٞۚ﴾

في بيان مفصل يضرب ربنا مثلًا رائعًا لنوره البهي، الذي أنار السماوات والأرض. فما هو ظاهر هذا المثل، وما هو تأويله الباطن؟.

أولًا: المشكاة التي كانت تضيء الدرب وساحة البيت (شق في

(١) بحار الأنوار: ج٨٣، ص٢١١.

(٢) مفاتيح الجنان، دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة.

الحائط) أول مفردات المثل القرآني.

والنور المنبعث من المشكاة ليس منها، بل من المصباح. وأما المصباح فهو ذلك الجزء المتوهج الذي يضيء، ولكن المصباح بحاجة إلى زجاجة تحفظه من الريح أن تطفئه، وكذلك أنه بحاجة إلى زيت يمده بالوقود. وكلما كان الزجاج أصفى والزيت أنقى، يكون الضياء أبهى. وهكذا وصف ربنا الزجاج كأنه كوكب دري، ووصف الزيت بأنه متخذ من شجرة في مرتفع؛ فلا شرقية تحرم من ضياء الشمس عند المغيب، ولا غربية تحرم منه عند الشروق. ومن الصفاء يكون بحيث يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نار.

ثانيًا: ما هو تأويل هذا المثل؟.

يبدو أن المشكاة هي المحل الذي ينتشر منه نور، وأظهر تأويل له يتمثل في قلب النبي ﷺ، وأفئدة من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم رجس الجهل وطهرهم تطهيرًا، وكذلك أفئدة العلماء بالله الذين اتبعوهم. لماذا؟.

لأن نور الوحي هو مثل نور الله سبحانه. قال الله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾[1].

أما المصباح فهو الوحي الذي عبّر القرآن عنه بالضياء والنور، بيد أن المصباح بحاجة إلى زجاجة تحميه، والزجاجة هو النبي والإمام علي وأهل بيت الرسالة الذين حموا الرسالة بما أوتوا من قوة.

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٤٥ - ٤٦.

أما الزيت الذي اتقد بنور الوحي، فهو ذلك القلب الذي قال عنه الرب: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[1].

وجاء في دعاء الصباح، «**صَلِّ اللَّهُمَّ عَلَى الدَّلِيلِ إِلَيْكَ فِي اللَّيْلِ الْأَلْيَلِ، وَالْمَاسِكِ مِنْ أَسْبَابِكَ بِحَبْلِ الشَّرَفِ الْأَطْوَلِ، وَالنَّاصِعِ الْحَسَبِ فِي ذِرْوَةِ الْكَاهِلِ الْأَعْبَلِ، وَالثَّابِتِ الْقَدَمِ عَلَى زَحَالِيفِهَا فِي الزَّمَنِ الْأَوَّلِ**»[2].

إن ذلك النسب الشريف هو كما الزيت المستخرج من شجرة لا شرقية ولا غربية، وذلك القلب الطاهر كان كما الزيت الذي يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار.

إن الله سبحانه قد اختار لرسالاته أطهر خلقه، وفي آية كريمة قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[3].

ثالثًا: وإذا أردنا أن نتمثل هدى رسول الله وأهل بيته، فإن علينا أن نقتدي بهم في كل تلك المراحل. أما المشكاة، فعلينا أن نطهر قلوبنا وأسرنا وبيوتنا من كل دنس، حتى تصبح هذه البيوت مشكاة لمصباح الوحي.

» إن أول واجب علينا لدراسة المعارف الالهية أن نرفع مستوانا العلمي إلى منهج معرفة الشيء بآياته وأسمائه، وأن نفرّق جذريًا بين منهج معرفة الخالق ومنهج معرفة المخلوق..

كما يجب أن نحمي الوحي من لوث الشرك والشك، ومن عواصف الشهوات والحميات، ومن طغاة الأرض وشياطينها الذين يبثون ثقافات الجاهلية.

---

(١) سورة الشعراء، آية: ٢١٩.

(٢) مفاتيح الجنان، دعاء الصباح لأمير المؤمنين عليه السلام.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٣٣.

ومن جهة أخرى علينا أن نجعل قلوبنا طاهرة عن الفواحش الباطنية؛ مثل الحسد والحقد والعصبيات، وكل ما يمنع من نفاذ نور الوحي إلينا.

وفيما يلي من الآيات المزيد من تفسير وتأويل هذه الكلمات المضيئة إن شاء الله تعالى.

٣- ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

أي نور يضاف إلى نور الوحي؟ ماذا يعني هداية الله لنوره من يشاء؟.

أولًا: نور العقل الذي أودعه الرب في قلب عباده، إنه كما الزيت النقي الذي يتقد حينما تمسه نار. وإذا تأملت علمت أن في الزيت نارًا خفيّة تتقد بالنار الظاهرة، ولولا تلك النار (قابلية الاشتعال) لكانت كالرماد. كذلك العقل البشري فيه قابلية الإضاءة بعد أن يستنير بنور الوحي.

وهكذا نقرأ في كلمة الإمام علي عليه السلام حول الوحي الذي يبشر به الأنبياء عليهم السلام: «**لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ**»[1].

وهكذا العقول المدفونة في ركام الغفلة والأساطير يثيرها الوحي، فإذا بنور الوحي يضاف على نور العقل، وهما ينبعان من مشكاة واحدة. وقد جاء في وصية الإمام موسى الكاظم عليه السلام لهشام، قال: «**يَا هِشَامُ، إِنَّ للهِ عَلَى النَّاسِ حُجَّتَيْنِ؛ حُجَّةً ظَاهِرَةً، وَحُجَّةً بَاطِنَةً. فَأَمَّا الظَّاهِرَةُ فَالرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالْأَئِمَّةُ عليهم السلام، وَأَمَّا الْبَاطِنَةُ فَالْعُقُولُ**»[2].

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم: ١.

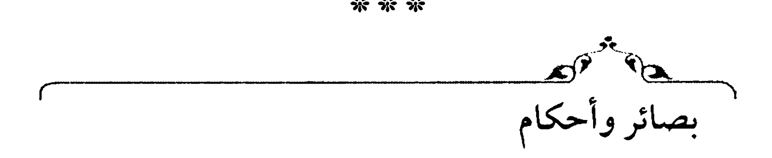
(٢) بحار الأنوار: ج١، ص١٣٧.

ثانيًا: وهكذا يهدي الله من عباده لنوره من يشـاء سبحانه، ومن يشاء يضلله. فالوحي والعقل ليسا بالضرورة ينتجان الهدى للإنسان، إنـما الهداية من الله سـبحانه مباشرة، وعلى الإنسـان أن يكـرر أبدًا هذا الدعـاء: «**اللَّهُمَّ اهْدِنِي مِنْ عِنْدِكَ، وَأَفِضْ عَـلَيَّ مِنْ فَضْلِكَ، وَانْشُرْ عَلَيَّ مِنْ رَحْمَتِكَ، وَأَنْزِلْ عَلَيَّ مِنْ بَرَكَاتِكَ**»[1].

وقد قال ربنا سبحانه: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾[2].

ثالثًـا: ويضرب الله هذه الأمثال التـي تقرب الحقائق لهم وتفتح لهـم نافذة عـلى غيب علمه من خلال الأمثـال. وإذا تأملنا في كل مثل، فلعـل ربنـا يهدينا إلى ما وراءه من الحقيقة. فـإذا أردت أن تعرف كيف ينـير الـرب السـماوات والأرض، فتأمل في مشـكاة فيهـا مصباح يتقد بزيت صـافٍ، وفي قلب فيه عقل يتقد بنور الوحي، وببيت يضيئه ذكر الله ويسمو أهله بتعاليم الله.

***



بصائر وأحكام

١ - وصـف الكتـاب الـرب بأنـه نـور السـماوات، فهـو الذي أعطاهما الخلق والهدى، وهو الذي أمسكهما بيد قدرته.

٢ - لا يجـوز أن نتحـدث عنـد الحديـث عـن الـرب عـن ذاتـه سبحانه، لأن عقولنا قاصرة عن التسامي إليه.

---

(١) بحار الأنوار: ج٨٣، ص١٩.

(٢) سورة الكهف، آية: ١٧.

٣- وكل شيء إنما هو آية خلقه ودليل العقل إلى معرفته.

٤- علينا أن نسمو بمستوانا العلمي إلى حيث نستدل بالآيات إلى الحقائق، ونميز بين منهج معرفة المخلوق ومنهج معرفة الخالق.

٥- ومشكاة النور قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأفئدة أهل البيت عليهم السلام، وينتشر منها ضياء الوحي. والنبي وأهل بيته والذين اتبعوهم بإحسان هم كالزجاجة، كانوا حماية الوحي.

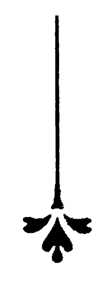
٦- ولكي نقتدي بهم نجعل القلب طاهرًا من الغل، وبيوتنا نظيفة من الفواحش والإثم، لنصبح مشكاة نور الوحي.

٧- ثم نحمي الوحي من رواسب الشرك والشك وعواصف الشهوات والحميات الجاهلية، ومن طغاة السلطة والثروة، ومن شياطين الثقافة الكافرة.

٨- وكما في الزيت نار خفية، كذلك في القلب نور خفي. وكما النار الظاهرة تستخرج نار الزيت، كذلك نور الوحي يثير نور العقل. وإذا كان الوحي حجة الله الظاهرة، فإن العقل حجته الباطنة.

٩- ومن الله الهدى، وعلى الإنسان أن يلجأ إليه ليرزقه إياه.

١٠- على المسلم أن يسعى جاهدًا ليجعل قلبه نظيفًا من الحسد والحقد والصفات الرذيلة، ويجعل بيته نظيفًا من لوث الذنوب، كالغيبة والتهمة والغناء والمحرمات.



بيوت النور

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ ﴾

* * *

تفصيل القول:

١ - ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾

ما صلة هذه الآية بما جاء في السابقة؟.

أولًا: تلك المشكاة التي يتقد فيها مصباح نور الله قد تتجلى في تلك البيوت التي أذن الله لها أن ترفع، فهي التي توفر لمن فيها كهفًا إيمانيًا آمنًا من فتن المجتمع المحيط وضغوطه. هناك يرفع الأذان في مواقيت الصلاة، وتقام الصلوات في أوقاتها، وتتلى آيات الكتاب، ويتواصى الآباء والأبناء على تعاهد أحكام الشرع. وهكذا البيوت

تصبح مشكاة لمصباح الوحي وما فيه من أنوار المعرفة.

ثانيًا: إن أهم ما يتميز به المؤمن هو ذكر الله؛ ذكر الله عند المصيبة للصبر عليها، وعند الطاعة لتعاهدها، وعند المعصية لتجنبها، وبالتالي ذكر الله سبحانه عند النعمة لشكرها.

ثالثًا: أسماء الله سبحانه صفاته، فهو الله الواحد الأحد الصمد، الفعال لما يشاء، غياث المستغيثين.

وهكذا سائر أسمائه الحسنى التي يدعوه بها الصالحون من عباد الله، وهذه الأسماء هي -بالتالي- مفاتيح معارف الدين وأبواب علوم الحق وسبل الوصول إلى الحقائق. وربما لذلك جاء في الآية الكريمة: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾[1]، فأهل الذكر هم أهل العلم حقًّا.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[2].

ألا ترى كيف يتصل العلم الإلهي بالقنوت آناء الليل والحذر من الآخرة ورجاء رحمة الله؟.

٢- ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾

لماذا التسبيح عند الغداة وفي وقت الأصيل؟.

أولًا: لأن البشر يتفاعل من الطبيعة، **فطورًا**: يرهب منها

(١) سورة النحل، آية: ٤٣-٤٤.
(٢) سورة الزمر، آية: ٩.

ويدعـوه ذلك إلى التسـليم لها، **وطورًا**: يرغب فيهـا ويدعوه طمعه إلى الخضوع لها، **وثالثًا**: يعجب بها فيدعوه إلى الانجذاب إليها، لذلك تراه بحاجة إلى التسبيح ليعرف أنه عبد الله تعالى وليس عبد الطبيعة، بل إن الرب قد سخر له ما في الأرض جميعًا.

وهكـذا يسـبح لله عنـد اختـلاف الليـل والنهـار حينـما تشرق الشمس ويتنفس الصباح على الطبيعة، وعندما تغيب فيجلجل الليل.

ثانيًـا: إن الطبيعة هي جزء منا وليسـت كلنا، بل نحن مخلوقون بنفحة من الروح. وهكذا علينا أن نتكامل ونتسامى إلى أفق الروح، لا أن نهبط ونتسافل إلى حيث الطبيعة وحدها.

ثالثًـا: إن في الطبيعـة آيـات الـرب، ومن يسـبح لله دائمًا يجعل الحياة مدرسـة له ومعراجًـا إلى معرفة ربه والتقرب إليـه، بينما الذين ينظرون إلى الطبيعة مجردة عن أسـماء الله الحسـنى إنهم محجوبون عن ربهم وبهاء أسـمائه وجميل صفاته، وبالتالي يعيشون في ظلمات بعضها فوق بعض.

رابعًا: إن البيت الذي يسـمو على سـائر البيوت لا بد أن يختاره الله ليكون مشـكاة لنور الوحي. فليس كل بيت يصلح لحمل الرسالة، وليس أمر الرسالة منوطًا باختيار الناس. قال الله سبحانه: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

* * *

(١) سورة آل عمران، آية: ٣٣ - ٣٤.

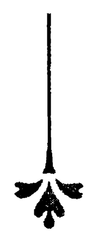
بصائر وأحكام

١- ذكر الله من أبرز ما يتسم به المؤمنون؛ فهم يذكرون ربهم عند المصيبة للصبر عليها، وعند الطاعة للاستقامة عليها، وعند دواعي المعصية لتحديها والاعتصام بالله منها.

وبيوت النور هي التي يُذكر فيها الله، ويتعاهد أهلها الطاعات ويتجنبون المعاصي، ويرفع فيها الأذان والصلوات، ويتواصى أهلها بالحق والصبر.

وأسماء الله مفاتح معرفته، وأبواب علمه، وسبل العروج إليه.

٢- وعند الغدو ووقت الأصيل يسبح المؤمنون ربهم، لكيلا ينبهروا بجواذب الطبيعة، ولا يخشون عواديها، ولا يخضعوا لها. ومن يسبح لله يجعل الحياة مدرسة ومعراجًا إلى ربه، بينما الآخر يلفه ظلام الجهل والغفلة.



الذين لاتُلهيهم الدنيا

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٣٧﴾﴾

* * *

تفصيل القول:

١ - ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ﴾

لماذا ذكر الرجال في آية منفصلة، وماذا يتميز به هؤلاء؟.

أولًا: ليس مجرد التسبيح يجعل مثل تلك البيوت رفيعة وذات قيمة سامية، بل نوعية تسبيحهم حيث نذكره لاحقًا. وهكذا فصل السياق بين أهل التسبيح وبين من يُسبح.

ثانيًا: يتميز هؤلاء في أنهم يجعلون صلتهم بالدين فوق علاقاتهم مع الدنيا. فهم رجال يعيشون على الأرض ويأكلون الطعام ويمشون

في الأسـواق طلبًا للرزق وابتغاء فضل الله ويمارسـون التجارة والبيع، ولكنهـم لا ولـن يفضلوا ما في الدنيا على الآخرة، بل ذكر الله والصلاة والزكاة همهم الأول.

ثالثًـا: مـاذا يعنـي ذكـر الله عنـد التجـارة؟ إنـه يعنـي أنهـم لا يتجاوزون فيهـا حدود الشرع، وكذلك أنهم عند البيع يراعون أحكام الدين، وإذا نودي للصلاة سعوا إلى ذكر الله وتركوا البيع، وإذا أغناهم الله فهم للزكاة فاعلون. كل هذه الصفات تجعلهم متميزين، ويختارهم الله لقيادة عباده، لأن نور الله يشع من بيوتهم.

رابعًـا: عنـد التدبر نجـد أن هـؤلاء الرجال من بيـوت أذن الله لهـا أن ترفع. ومن هنا فهـم من أسرة واحدة، أصولهـم خير الأصول، وفروعهـم نعم الفـروع، ذرية بعضها من بعض، نـور على نور. زيتهم نقي، وشـجرتهم مباركة غنية بالقيم السـامية، لا تعصف بهم الحميات الجاهليـة؛ ولا يتطرفـون شرقًـا أو غربًا، بـل هي مسـتقيمة عادلة على الصراط المستقيم.

٢ - ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾

بالرغـم من ذلـك النعت الفاضل، تجد هـؤلاء الرجال في ذروة الخشـية من الله، والخـوف من يوم ما. فـما هو ذلك اليـوم، ولماذا ذلك الخوف الدائم؟.

أولًا: أمـا ذلـك اليـوم فقد يكـون يـوم القيامة، حيـث تبلو فيه السرائـر. ولكن لأن ذلك اليـوم انعكاس للدنيا ومـا فيها من حقائق، فقـد يكـون المراد أن هؤلاء لا يغترون بما لديهم مـن زهادة وعبادة، بل هـم حذرون أبدًا من العافيـة. فهم أبدًا بين الخـوف والرجاء، وهم في

ضراعة دائمة إلى الله أن يحفظ إيمانهم ودعاءهم، وهو ما قاله الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾[1].

ثانيًا: عرفانهم بالله ويقينهم بما عند الله من ثواب عظيم وعقاب أليم يجعلهم في ذروة الخوف وذروة الرجاء، ولذلك فهم يذكرون الله ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ومع ذلك يخافون.

وكما جاء في كلمة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**فَهُمْ وَالجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ**»[2].

ثالثًا: أين تقع هذه البيوت في أمتنا، وهذا التاريخ وهذه الأحاديث أمامنا؟. إننا لا نجد بيتًا رفيعًا فيه هؤلاء الرجال مثل بيت النبوة، حيث أهل البيت عليهم السلام الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا.

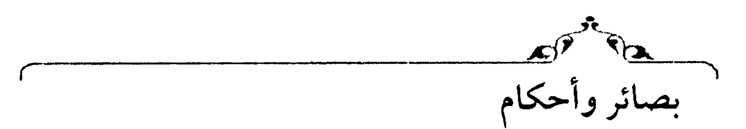
ففي قول الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾[3] أسند الثعلبي إلى أنس وبريدة أنها بيوت الأنبياء عليهم السلام. «فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ الله، هَذَا الْبَيْتُ مِنْهَا؟ -لَبَيْتُ عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ عليهما السلام- قَالَ صلى الله عليه وآله: **نَعَمْ، مِنْ أَفَاضِلِهَا**»[4].

إن سيرة النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، حسب إجماع المسلمين وتواتر أخبارهم تجعلنا نعرف يقينًا أن ذلك البيت هو المثل الأعلى لهذه

(١) سورة آل عمران، آية: ٨.
(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم: ١٩٣.
(٣) سورة النور، آية: ٣٦.
(٤) بحار الأنوار: ج٣٦، ص١١٧.

الآيـة، وبـه يقاس أي بيـت يتبع نهجـه ويتمثل بعـض أخلاقهم. والله المستعان.





بصائر وأحكام

١- يعايـش المؤمـن الدنيا والآخرة في كل لحظـات حياته، وإذا تعارضتا يفضل الآخرة أبدًا.

٢- بيوت الذكر الرفيعة بإذن الله تتمثل في تلك الشـجرة الطيبة أصولهم، المتكاملة فضائلهم، المتوسطة سبلهم، فلا هي شرقية ولا هي غربية، وهي على صراط الله المستقيم.

» إن سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيتـه عليهم السلام، تجعلنا نعرف يقينًـا أن ذلـك البيت هو المثل الأعلى لهذه الآية، وبه يقاس أي بيـت يتبع نهجه ويتمثل بعض أخلاقهم.



جزاء الأعمال

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨)﴾

* * *

تفصيل القول:

١ - ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ﴾

لكل عمل في الدنيا نوعان من الجزاء؛ فنوع هو ذات العمل بعد أن يتجسد، ونوع ثوابه وعقابه المقدرين عند الله سبحانه. كيف؟.

أولًا: حينما يأكل الواحد أموال اليتامى، فإنما يأكل نارًا في بطنه، ولكنها لا تشتعل إلا بعد الموت. قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[1].

(١) سورة النساء، آية: ١٠.

فالنار هنا كما النار الكمنة في الوقود، ولكنها تشتعل هناك سعيرًا.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾[1].

وهكذا فإن الأبرار -الآن كما في القيامة- هم في النعيم. فالصلاة ذاتها معراج، وهي قربان، وهي سكينة، وهي تتمثل يوم القيامة في أحسن صورة. كذلك الجحيم تحيط الآن بالكافرين، كما قال ربنا سبحانه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2].

ولكن لا يعني ذلك أن هذا التجسيم للأعمال هو وحده الجزاء، بل هناك جزاء آخر للكافر يتمثل في عقابه للمعصية لما فيها من تحدٍّ للرب سبحانه، وجزاء آخر للمؤمن بطاعته وبفضل ربه.

٢- ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

كل شيء عند ربنا بمقدار، ويوم القيامة يوم الحساب. فما هو السرّ في أن الله يرزق من يشاء بغير حساب؟.

أولًا: إن الرزق الإلهي يفيض من رحمته الواسعة، وتلك الرحمة لا تحدها حدود. السنن التي قدرها والتي يجريها ربنا في خلقه. فقدرته غير محدودة كما نحن المخلوقين بحسابات السنن والأنظمة والأقدار، لأنه سبحانه محيط بها وهو فعال لما يشاء. وهنا نعرف مدى الخطأ الذي وقع فيه اليهود، حيث قالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾[3].

(١) سورة الانفطار، آية: ١٣-١٥.

(٢) سورة التوبة، آية: ٤٩.

(٣) سورة المائدة، آية: ٦٤.

لأنهم ﴿غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾[1].

أوتدري لماذا؟.

لأنهم زعموا، ربما تقليدًا للأفكار الفلسفية الشركية، أن السنن الإلهية تحدد ربنا سبحانه، وأن خلقه للكائنات فيض حتمي منه كما شعاع الشمس من عينها، والأمواج من البحار الهائجة.

كلا؛ إن الله خالق الأشياء خلقًا ومبدعها إبداعًا بلا لغوب ولا علاج، سبحانه.

لذلك قال ربنا سبحانه: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾[2].

وهكذا الدعاء يرفع البلاء ويدفع القضاء، وقال الله سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾[3]. وهكذا قال الله سبحانه: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾[4].

ثانيًا: الرزق الإلهي ليس بلا حكمة، بل إن الذين يطيعونه ويرضى عنهم الرب يحظون برزق يقتضيه فضل الله، وهو أعظم من ذلك الرزق الذي يقتضيه ما قدره لعباده المطيعين من جزاء محسوب لأعمالهم، حيث قال سبحانه: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٦ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ

(١) سورة المائدة، آية: ٦٤.

(٢) سورة المائدة، آية: ٦٤.

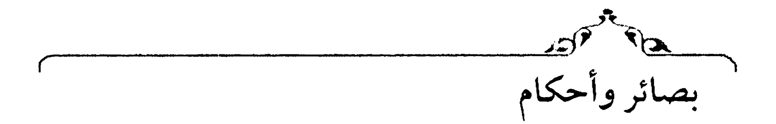
(٣) سورة غافر، آية: ٦٠.

(٤) سورة آل عمران، آية: ٣٧.

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[1].

وهكذا يرغب المؤمن في ذلك الفضل العظيم الذي لا يحده حساب، ويتعرض لنفحاته التي تتجاوز التصور والخيال.

* * *

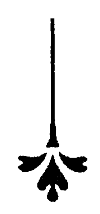


بصائر وأحكام

١- للعمل -إن خيرًا وإن شرًّا- نوعان من الجزاء إذ العمل ذاته يتجسد يوم الدين؛ فإن كان صالحًا يتجسد نعيمًا، وإن كان سيئًا يتجسد عذابًا أليمًا، ثم العمل الصالح طاعة والرب سبحانه يثيب عليها بفضله، كما العمل السيئ معصية تستوجب العقاب بعدله سبحانه.

٢- قدرة الرب واسعة لا تحدها حسابات خلقه، لأنهم خاضعون لسنن الله، وهو سبحانه محيط بتلك السنن قدرة وتدبيرًا.

(١) سورة الزلزلة، آية: ٦-٨.



أعمال الكافرين سراب

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾

❊ ❊ ❊

تفصيل القول:

١ - ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾

ما هي هذه الأعمال التي يجعلها الله هباءً منثورًا، أو هي كسراب في صحراء يظن الكافر أنه ماء وهو لا شيء؟.

أولًا: لأن الإيمان قاعدة العمل الصالح، فالكفر ينسف العمل نسفًا، كما الملح يذوب في كف المحيط؛ لأن العالم خلق الله سبحانه، وعلى العبد طاعته، ومن دون الطاعة لا قيمة لأي عمل، لأنه يقع

خارج دائرة الشرعية، فلا يغني عن صاحبه شيئًا.

ثانيًا: السراب في أرض قاحلة يغري الظمآن، وحاجته إلى الماء قد تساهم في تصوره أنه ماء. كذلك الكافر بحاجة إلى عمله، ولكنه حين قام به من دون إيمان كان كمن يسير في طريق خطأ. فكلما سار فيه ازداد عن هدفه بُعدًا. وكذلك الكافر حينما يسعى وراء السراب ويزيد من أعمال لا أساس لها من إيمان، فإنه لا يحصد من عمله شيئًا. ومن هنا اشترط القرآن الإيمان ليكون السعي نافعًا، فقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾[1].

أما العمل الذي لا يبنى على أساس الإيمان، فيقول عنه ربنا سبحانه: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾[2].

ثالثًا: ويبدو أن المراد من العمل هنا ليس السيئات الظاهرة، بل حتى الحسنات التي يظن الكافر أنها تنجيه، ولكنها تتلاشى بسبب كفره وتكون مثل السراب.

٢- ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

حينما تحولت صالحاتهم إلى سراب، بقيت سيئاتهم ماثلة أمامهم فحوسبوا عليها، وكان الله سريع الحساب. وذلك لأنه:

أولًا: سيئاتهم كانت متوافقة مع نفوسهم الخبيثة، فكانت الأدلة ضدهم كافية والجزاء حاضرًا.

---

(١) سورة الإسراء، آية: ١٩.

(٢) سورة الفرقان، آية: ٢٣.

ثانيًا: لأن الله سبحانه كان محيطًا بهم علمًا وقدرة، ولأن أعمالهم كانت في ميزان العدل مكتوبة في سجل أعمالهم ومشهود عليها من قبل الشهود، فلم يستغرق جزاؤهم وقتًا طويلًا، بل كان الله سبحانه سريع الحساب بالنسبة إليهم.

* * *



بصائر وأحكام

* الإيمان قاعدة العمل الصالح، ومن دونه ينسف العمل نسفًا، ولله سبحانه ملكوت السماوات والأرض. فالعمل من دون الإيمان يقع خارج دائرة الشرعية.



مصدر النور

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾

* * *

تفصيل القول:

١ - ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾

ما هذا المثل، وكيف يتقابل مع المثل السابق لنور الرب، وما مغزى الظلمات؟.

أولًا: كما النور الإلهي يتجلى في بيت الذكر الرفيع، فإن ظلام الكفر يغشى وجوه فريق من الناس.

أرأيت البحار الهائجة التي تتراكم فيها المياه (لأن البحر لجي)؟ فالموج يعلو موجًا، مما يشكل حاجزًا عن النور والسحاب يزيدهما ظلامًا.

وحينما نقابل نور الله في السماوات والأرض بذلك الظلام المتراكم، فسوف نزداد معرفة بمدى حاجتنا إلى نور الرب. وعمومًا المقابلة ميزان يعتمد عليه العقل في معرفة الحقائق.

ثانيًا: القلب المحجوب بالشهوات والمحاط بالثقافات التبريرية والمبتلى بسبات العقل، هذا القلب مثل للظلمات المتراكمة.

ثالثًا: حينما يكفر الإنسان بربه، تحيط بقلبه وساوس الشيطان، كما يحيط به الكفار الذين يزيدونه ظلامًا فوق ظلامه، ويصبح عبدًا للطغاة مما يزيدونه خسرانًا.

وهكذا يصعب عليه الخروج من دوامة الكفر.

٢- ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾

فهذه بصيرة مهمة وسنة إلهية جارية في كل البشر، كيف؟.

أولًا: أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه، كما أن أقرب الجوارح إليه يده. وهذا الإنسان المحاط بأسباب الظلمة (من نفس أمارة وشهوات مطاعة ووساوس تترى على قلبه) إنه لا يكاد يرى نفسه. إنه يستطيع أن يراها بصعوبة بالغة وبعزم شديد. كذلك لا يستطيع الكافر أن يعرف نفسه، وهي أقرب شيء إليه، بل ينساها في خضم المؤثرات الخارجية، كما قال الله سبحانه: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾[1].

(١) سورة الحشر، آية: ١٩.

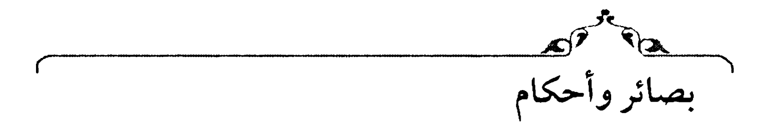
ثانيًا: الذي يبحث عن النور في الثقافات البشرية أو في الأساطير الجاهلية أو بالاعتماد على نفسه، بعيدًا عن هدى الوحي، إنه كمن يبحث في الماء عن جذوة نار.

> » القلب المحجوب بالشهوات والمحاط بالثقافات التبريرية والمبتلى بسبات العقل، هذا القلب مثل للظلمات المتراكمة.

إنما النور، كل النور في هدى الرب. في ذلك العقل المتقد بضوء الوحي، كما يتقد الزيت النقي بالنار. أما جهالات البشر وتصوراتهم وظنونهم وثقافاتهم، فهي مجرد حجب سميكة تضاف إلى نفوس المتعلقين بها، كما ظلمات بعضها فوق بعض.

وهكذا نجد البشر حينما خرج عن رحاب النور الإلهي المتمثل في بيوت الرسالة، إلى أيّ مدى غرق في بحر لجي يحيط به موج التقليد وموج الغرور وموج التبرير، ظلمات بعضها فوق بعض. أعاذنا الله منها.

* * *



بصائر وأحكام

١- المقارنة (والمقابلة) ميزان يعتمده العقل لمعرفة الحقيقة.

٢- الكفر ظلام، وبيئة الكفر ظلام، ووساوس الشيطان ظلام، ظلمات بعضها فوق بعض.



كيف تُسبحُ الخلائق لربها

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾

* * *

تفصيل القول:

١ - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾

ما هذا التسبيح الذي يشترك في أدائه من في السماوات والأرض، وكيف يُرى إن كان تسبيحًا لسانيًّا ولا يُسمع، وهل هذه الرؤية بالعين أو بالعلم؟.

أولًا: حينما يكون العلم محيطًا بشيء، وشواهده ظاهرة للشخص، نستخدم كلمة الرؤية. وكأن النظر بالعين أقرب الحواس إلى القلب، كما قال سبحانه: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾[1].

(١) سورة الماعون، آية: ١.

ومن هنا نستوحي من الآية؛ أن باستطاعة البشر إذا كشفت عنه حجب العناد والغفلة، أن يحيط علماً بروح الخليقة وكأنه يرى تسبيحها كما لو سمعها بأذنه، ولامسها بجوارحه، واستشعر بها بجوانحه.

ثانيًا: في آيات عديدة نقرأ قوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1].

وقوله سبحانه: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[2].

وقوله سبحانه: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[3].

فلماذا هنا خص التسبيح بـ ﴿مَن﴾ إشارة إلى ذوي العقول. وفي تلك بـ﴿مَا﴾ إشارة إلى العموم؟.

يبدو أن التسبيح هنا من كل شيء مخلوق، ولكن الناس لا يفقهون لغات الكائنات. بينما الممكن للبشر وبصورة أيسر الاستماع إلى تسبيح الناطقين من البشر والطير وسائر الأحياء. قال الله سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[4].

ثالثًا: كيف يتسنى لنا رؤية تسبيح خلق الله؟.

---

(١) سورة الحشر، آية: ٢٤.
(٢) سورة الجمعة، آية: ١.
(٣) سورة التغابن، آية: ١.
(٤) سورة الإسراء، آية: ٤٤.

علينا أن ننظر إلى عدة أبعاد من حياتهم:

ألف: نتأمل مواطن الضعف لديهم. فكل مخلوق محدود بالزمان والمكان والإمكانات.. مما يهدينا إلى خالقه وأنه قدوس متعالٍ عن تلك المواطن، ولو كانت لديه أمثالها لكان مخلوقًا مثلهم، بل إن ضعفهم دليل حاجتهم إلى خالق قوي، وذلتهم دليل حاجاتهم إلى رب عزيز، وجهلهم دليل حاجتهم إلى عليم، وهكذا.

باء: ونتأمل في الوقت ذاته إلى مدى تفاعل كل مخلوق مع سائر الخلائق وانتظام الجميع في تدبير حكيم، مما يهدينا إلى الرب المهيمن العليم الذي قدر شؤونهم ودبّر علاقاتهم.

جيم: ثم ندرك بنور العقل وشهادة الوجدان أن كلماتهم الناطقة تلهج بالدعاء والصلاة، لأنهم لا يزالون يستمدون القوة من الله لجبر ضعفهم. والعطاء منه لتأمين رزقهم والحفظ منه لدرء الأخطار عنهم. وقد قال سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾[1].

إن كلماتنا هنا عاجزة عن تفسير هذا التسبيح الذي يصدر ممن في السماوات والأرض، ومما في السماوات والأرض.. والسبب أن ما

---

(1) سورة الذاريات، آية: ٥٦-٥٨.

يهدينا إليه ليست كلمات، وإنما حالة عرفانية تحدث عند المؤمن وهو يسير بأوهام قلبه في أرجاء ملكوت السماوات والأرض.

رابعًا: وهذا الطير التي تصف في السماوات معتمدة على توازن دقيق بين جاذبية الأرض وبين قوة الرياح، إنها تسبح بحمد الله.

بلى؛ ليس كل بشر يسمع هذا التسبيح أو يراه، بل من أوتي حسًّا إيمانيًّا وقلبًا عرفانيًّا. رزقنا الله إياه.

٢- ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾

لماذا ذكرت الصلاة هنا والحديث كان عن التسبيح، وما السر في تغيير التعبير، فهنا ذكر ﴿عَلِمَ﴾ ثم ذكر ﴿عَلِيمٌ﴾؟.

أولًا: يبدو أن التسبيح هو تقديس الخالق المهيمن على تدبير الكائنات من أي نقص، لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في أفعاله. فكل فعل تراه في غاية الجودة والإتقان، وذلك يهدينا إلى أسمائه الحسنى، وأنه عزيز عليم، حكيم قدير. فكلما تأملنا في الخليقة وآثار اللطف الإلهي فيها انفتحت علينا نافذة على أسمائه الحسنى.

قال سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[١].

ثانيًا: أما الصلاة فهي ذكر الله والتوسل إليه بالدعاء، إذ إن المخلوق حين يجد آيات الرحمة من ربه وهو يشعر بالخوف من فقدان نعمه، ويتطلع إلى المزيد من فضله، ويعلم يقينًا أن ربه فعال لما يشاء،

(١) سورة الملك، آية: ٣-٤.

يدعو ربه إما بلسان المقال أو بلسان الحال.

قال الله سبحانه: ﴿يَسْئَلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾[1].

ثالثًا: ولأن الصلاة فعل متجدد من المخلوق كما التسبيح، فناسب التعبير بـ﴿عَلِمَ﴾. بينما الصفة الأساس للرب، الإحاطة علمًا بأفعال خلقه من قبل ومن بعد الصلاة والتسبيح. وربنا سبحانه محيط بلغات خلقه المختلفة؛ فالطيور كل له تسبيحه وصلاته بلغة خاصة به، وكذلك الملك والجن والإنس.

وجاء في دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة: «**وَتَغَمَّدْنَا بِعَفْوِكَ عَنَّا فَإِلَيْكَ عَجَّتِ الْأَصْوَاتُ بِصُنُوفِ اللُّغَاتِ**»[2].

رابعًا: ومن التدبر في الآية قد نستوحي أن كل فعل يقوم به خلقه له مردود سلبي أو إيجابي عليه، حيث إن علم ربنا به ليس سدى، خصوصًا وأن الفعل لا ينسب إلى فاعله إلا لأنه مسؤول عنه.

وقد جاء في حديث شريف عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**مَا مِنْ طَيْرٍ يُصَادُ فِي بَرٍّ وَلَا بَحْرٍ، وَلَا يُصَادُ شَيْءٌ مِنَ الْوُحُوشِ إِلَّا بِتَضْيِيعِهِ التَّسْبِيحَ**»[3].

وقصة الهدهد الذي غاب فتوعده النبي سليمان عليه السلام مذكورة في كتاب ربنا، حيث قال الله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾[4].

---

(١) سورة الرحمن، آية: ٢٩.
(٢) مفاتيح الجنان، من دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة.
(٣) بحار الأنوار: ج٦١، ص٢٤.
(٤) سورة النمل، آية: ٢٠-٢١.

بصائر وأحكام

١- إذا أحاط القلب بآيات الحقيقة علمًا، رأى التسبيح بوضوح، وحين يطهر المرء من حجب الهوى، وينظر إلى آيات الله بنوره البهي، يرى كيف تسبح ما في السماوات والأرض لربها.

٢- كلما تفكرنا في خلق الله وآيات اللطف الإلهي فيها، فتحت -بفضل الله أمام بصائرنا- نافذة على أسمائه الحسنى.

» إن التسبيح هو تقديس الخالق المهيمن على تدبير الكائنات من أي نقص، لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في أفعاله. فكل فعل تراه في غاية الجودة والإتقان، وذلك يهدينا إلى أسمائه الحسنى.



للّـه مُلك السماوات والأرض

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ ﴾

* * *

تفصيل القول:

تذكرنا آيات القرآن بمالكية الله للسماوات والأرض، وأن إليه سبحانه المصير. ماذا تعني هذه الكلمات، ولماذا هذا التأكيد؟.

أولًا: ناصية الكائنات بيد الله سبحانه وتعالى، وهو مهيمن عليها يقلبها كيف يشاء، ومتى يشاء، وهو الذي قد استوى على عرش القدرة والسلطان والتدبير. ذلك أن ربنا سبحانه قد ابتدع الخلائق لا من شيء كان قد سبق، ولا احتذاء لمثال كان قد تحقق، وهو بقدرته التي لا تحد يمسك السماوات والأرض بيده، ولولا ذلك لزالتا. فهو الرزاق من فيض رحمته عليهما، والمجري لسنن الحكمة فيهما، ولولا أنه قائم بنظامهما لفسدتا وبطلتا.

فابتـداءً من نواة الذرة وما يدور في تلـك المملكة المتناهية في الصغر كما في العظمة، وانتهاء بالمجرة المتناهية في السعة كما في العظمة خلقًا ونظامًا وتقديرًا وتدبيرًا لكل ما في الخلق، لولا رزق الله ولولا تدبيره ولولا سلطانه لتلاشى وعاد عدمًا كما هو ذاته. فهذا الملك حقًّا، والسلطان حقًّا.

ثانيًا: وقد يتساءل المرء: إلى أين ينتهي هذا الخلق؟. هل إلى نهاية عدميـة تامـة، أم إلى تطور كبير كما يزعم بعض علـماء الفيزياء الكونية، حيـث يزعمـون وجـود دورة للخلق في كل مدة قد تطول خمسـة عشر ألـف مليـون عـام أو أكثـر أو أقـل، حيث تمـددت المـادة -بزعمهم- بانفجار كبير ثم تعود تنكمش خلال مدة طويلة، أم ماذا؟.

الإجابة ببسـاطة: إن السماوات والأرض وما فيهما تصير إلى الله سـبحانه. فهو الذي يحكم فيهما بحكمه، وهو الذي يفعل ما يشاء، ولا يحد قدرته ومشيئته شيء.

ثالثًـا: هذه الحقيقة هـي التي لو عرفناها حقًّا، لأصبح تفسـيرنا للخليقة ولأنفسنا تفسيرًا حكيمًا وحقًّا. وتأكيد الكتاب عليها باستمرار يصلح فينا منهج التفكير حتـى نعرف حقائق الكائنات وحوادثها وما ينبغي أن نفعله معرفة سليمة. لماذا؟.

لأن الذي يجهل الحقائق الكبرى، كيف يستطيع أن يحلل الحقائق المحدودة تحليلًا سـليمًا؟. إنه كمـن يمشي في غير الاتجاه الصحيح، فإن سرعة مشيه أو سلامة مشيه لا تنفعانه.

إن حسابات البشر سوف تكون في ضلال بعيد، إذا لم يؤمن الإنسان بربـه وبملكه للسـماوات والأرض، وبسـلطانه.. ومن هنا تجد الفلاسـفة وعلـماء الطبيعـة المهتمين بالمسـائل الأسـاس لا يزالون يـدورون في حلقة

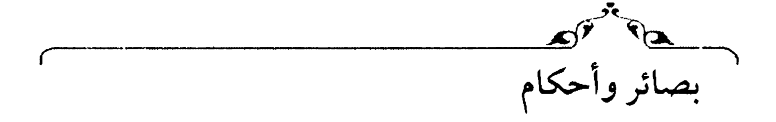
مفرغة، حينما يفسرون غيب الكون وسرّ الموجودات وبدايتها ومصيرها.

إن علينا -إذا أردنا فهم الحقائق وفهم أنفسنا جيدًا- أن نسلك منهجًا سليمًا يبدأ من الإيمان بالخالق، وإلَّا فقاعدة المعرفة قائمة على جرف هارٍ.

رابعًا: من هنا فإن كل شيء يسبح بحمده ويصلي له ويدعو لحفظه وليزداد منه رحمة.

إن كل ذي لب يدرك بفطرته أن الذي أعطى أولًا يمكن أن يسلب ما أعطاه، ويمكن أن يزيد من عطائه، بل إذا فطن الحقيقة أكثر فأكثر، وخاض في غور المعرفة أعمق فأعمق، شعر بأن استمراره رهين العطاء. فلو انقطع الفيض الرباني عن المخلوق لحظة، عاد إلى حقيقته العدمية، وفني فناءً تامًا، وأصبح نسيًا منسيًّا كأن لم يكن أبدًا.





بصائر وأحكام

* كمن يسير في اتجاه خطأ، لا يستطيع من يجهل الحقائق الكبرى فقه الحقائق المحدودة، ومن تلك الحقائق: أن الله قد استوى على العرش يدبر الأمر كما يشاء، لانّه لا من شيء خلق الأشياء ولا احتذاء مثل سابق ابتدعها، وفيض رحمته يمسكها وإلا لزالت، فهو فعّال فيها بما يريد.



لننظر إلى صنع الرب

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾

* * *

تفصيل القول:

١ - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾

ما هي الصلة السياقية بين هذه الآية والتي سبقتها بالنبرة ذاتها ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، وما هي دلالة الغيث على تدبير الرب؟.

أولًا: إن تسبيح من في السماوات والأرض للرب نابع من حاجتهم إلى ربهم المدبر لشؤونهم، ومن تدبيره تسخير الرياح لنشر السحب ومن ثم لهطول الغيث. فإذا نظرت إلى كل ذلك بلا حجب من غفلة أو شك

لرأيت آثار رحمته سبحانه، وأنه كيف يزجي قطعات الغيوم من أعالي البحار إلى الأراضي البعيدة وكأنها قطعان ماشية تساق في اتجاه واضح لغاية محدودة. ثم إذا وصلت الغاية تراكمت السحب بأمر ربها الذي ألف بينها، لم تدعها تتراكم هنا وتخف هناك، بل جعلها في مستويات متقاربة، وألّف بين باردها وحارها وأخرج منها شحنات كهربائية هائلة نرى أثرها في البرق ونسمع صوتها في الرعد، ثم خلق منها كميات هائلة من النيتروجين الضرورية للنبات، وهكذا استخرج الودق من خلاله.

ثانيًا: إن هذا يجري في السماء حيث ننظر جميعًا إلى آثار التدبير، مما يجعلنا ندعو الرب لينزل علينا رحمته. فإذا هطلت الأمطار كانت بكميات معقولة، لا قليلة عديمة الفائدة للزرع، ولا كثيرة تسبب الفيضانات والسيول المدمرة.

وهذا التسبيح الفطري الذي قد يجري على ألسنتنا هو التسبيح ذاته الذي يلهج به كلٌّ مِنَ السماوات والأرض والطير صافات كل بلسانه وحسب مستواه.

أوَليست دواب الأرض وهوامها هي الأخرى بحاجة إلى الغيث وتصلي لربها لكي يسقيها من السماء ماء طهورًا، بل حتى الأشجار والمروج وكل ذي شعور، كل ذلك مثل ظاهر للتسبيح والصلاة والدعاء الذي يعكس حاجة الجميع إلى رحمة الرب وعطائه.

٢- ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾

ما هذه الجبال التي يُنزل الله منها البرد، وما هي آثار التدبر في إصابة الغيث أو البرد بعضها وصرفه عن بعضها الآخر؟.

أولًا: أرأيت هذه الجبال التي تحيط بنا لو انعدمت الجاذبية في الأرض لأصبحت كثيبًا مهيلًا. ثم تصور لو أن السحب التي تتراكم في السماء كما الجبال في الأرض، لو أنها كانت في كرة شديدة الجاذبية، ألم تكن كما الجبال على الأرض؟ وهكذا نجد التعبير في غاية الدقة عما في السماء من تراكمات السحب التي يشهدها من في الطائرة كما يشهد الجبال في ترتيبها وتداخلها وتعاضدها. بلى؛ كل هذا من صنع الله الذي أتقن كل شيء صنعه.

ثانيًا: عندما تعصف الرياح الشديدة بتلك الجبال التي تكونت بفعل تراكم الغيوم في السماء، فإذا بحبات المطر تتقلب في كف الرياح الشديدة صاعدة نازلة، وبفعل البرد الشديد تتحول إلى بَرَد مثلّج مصنوع في تضاعيف هذه الجبال، حتى إذا تكاثفت وثقلت وقعت على الأرض. فربما كانت نعمة، وربما تحولت نقمة.

إذا كانت الرياح شديدة ولم تسمح لوقوعها إلا بعد أن أصبحت مثل كرة المضرب أو حتى أكبر، أهلكت الأحياء، وربما هدمت المباني، وأفسدت الأرض.

ثالثًا: عندما نتأمل في مواطن هطول الأمطار، نجد أنها لا تضبط بحدود مفهومة لنا سلفًا، ولا يستطيع أحد أن يتنبأ بها، ولكنها في النهاية تهطل بحكمة بالغة فتصيب قومًا يستحقونها وتُصرف عن آخرين، إما لأنهم قد ظلموا أنفسهم وجار قضاؤهم، وتمادوا في عصيان ربهم، أو لأي سبب آخر.

وهكذا نجد آثار التدبير الرباني جلية واضحة.

وعند التفكر نجد أن تدبير الله تعالى لرزق عباده أو لتقدير شؤونهم هو كتدبيره في هطول الأمطار، وهكذا في سائر آفاق الخلق.

إن العلم قديمًا وحديثًا حاول أن يحيط بكل الأنظمة التي تسود الكائنات من أجل التنبؤ بالمستقبل، وهكذا تسخيرها لمصالحه ومآربه.

وقد نجح العلم في كثير من الآفاق، ولكنه بقي عاجزًا عن معرفة المستقبل بكل تفاصيله. لماذا؟.

لأن هناك هامشًا من التدبير لا يطلع عليه أحد، وبذلك عرف الناس وفي طليعتهم العلماء، والأعلم منهم قبل غيره، بأن من يدبر الخلق لا يزال مهيمنًا عليه، ولا أحد يتحداه في علمه وقدرته وحكمته سبحانه.

» التسبيح الفطري الذي قد يجري على ألسنتنا هو التسبيح ذاته الذي يلهج به كلٌ مِنَ السماوات والأرض والطير صافات كل بلسانه وحسب مستواه.

ولذلك حينما سئل الإمام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ عن دليله إلى ربه، قال: «**عَرَفْتُ الله سُبْحَانَهُ بِفَسْخِ الْعَزَائِمِ وَحَلِّ الْعُقُودِ..**»(١).

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٢).

وقال سيد الشهداء الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**إِلَهِي عَلِمْتُ بِاخْتِلَافِ الْآثَارِ وَتَنَقُّلَاتِ الْأَطْوَارِ أَنَّ مُرَادَكَ مِنِّي أَنْ تَتَعَرَّفَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى لَا أَجْهَلَكَ فِي شَيْءٍ**».

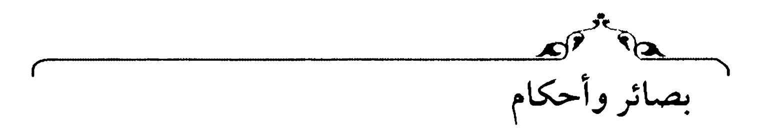
وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**إِلَهِي حُكْمُكَ النَّافِذُ وَمَشِيَّتُكَ الْقَاهِرَةُ لَمْ يَتْرُكَا لِذِي مَقَالٍ مَقَالًا، وَلَا لِذِي حَالٍ حَالًا. إِلَهِي كَمْ مِنْ طَاعَةٍ بَنَيْتُهَا وَحَالَةٍ شَيَّدْتُهَا هَدَمَ اعْتِمَادِي عَلَيْهَا عَدْلُكَ، بَلْ أَقَالَنِي مِنْهَا فَضْلُكَ**».

(١) نهج البلاغة: حكمة رقم: ٢٥٠.
(٢) سورة لقمان، آية: ٣٤.

ثم قال عليه السلام: «**إِلَهِي أَغْنِنِي بِتَدْبِيرِكَ لِي عَنْ تَدْبِيرِي، وَبِاخْتِيَارِكَ عَنِ اخْتِيَارِي**»[1].

وهذه هي قمة العبودية لله سبحانه، أن تراه في كل تدبير، وتجده عند كل حالة عندك، أو ظاهرة في الخليقة، وتسأله كل حاجة وتفوض أمورك إليه في كل حالة. والله المستعان.





بصائر وأحكام

١- لأن من في السماوات والأرض يشعرون بحاجتهم إلى رزق الله، فإنهم يسبحونه ويدعونه؛ ومثل ذلك حاجتهم إلى الغيث الذي يدبره الرب تدبيرًا حكيمًا.

٢- وقد آتى الرب عباده بعضًا من العلم، إلا أنه يحيط به علمًا بالغيب. وهكذا لا يقدر أحد أن يعرف كل ما في ضمير المستقبل.

٣- ينبغي للمؤمن أن ينظر إلى تحولات الطبيعة، ومنها سُقيا الغيث للأرض بما فيها من نبات وأحياء، لكي يرى كيف يزجي الرب سبحانه السحاب ثم يدبره حتى يسقي الحرث والنسل برحمته وبقدر حسب تقدير حكيم.

(١) بحار الأنوار: ج٩٥، ص٢٢٥.



عبرة لأولى الأبصار

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾

* * *

تفصيل القول:

١ - ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾

أليس الليل والنهار هما اللذان يتقلبان، فما هو دور الرب وتدبيره؟.

أولًا: في تقلب الليل والنهار آيتان:

- آية التقدير للرب الذي أتقن كل شيء صنعه.
- آية التدبير الحكيم.

فأما آية التقدير، فإنك تجد دقة متناهية في نظام الشمس التي تجري لمستقر لها، ذلك تقدير العزيز العليم. فلا تحيد عن مسارها، لا في الزمان ولا في الموقع. مَنْ ضبط هذه الكتلة النارية الهائلة، وسخرها في

مسارها، أليس هو العزيز العليم؟.

ثم مسافة الشمس عن الكواكب المحيطة بها، ومسافاتها فيما بينها وهي تتحرك في مسارات مختلفة وحركات متنوعة وكلها تسبح في فضاء مع ملايين الملايين من الأجرام المضبوطة جميعًا في تقدير.

ومن حركات الشمس والأرض قدر ربنا اختلاف الليل والنهار. كيف تتداخل في الساعات، يزيد هذا على حساب ذاك وبالعكس، بدقة تصل إلى أدق من جزء من مليون جزء من الثانية. تلك آية الصنع المتقن.

وأما آية التدبير، فبالرغم من كل تلك الدقة في ضبط السيارات والأرض، فإن متغيرات كثيرة تتحرك في إطارها متأثرة بعوامل نعرف بعضها ونجهل الكثير.

فهناك اختلاف الأنواء والرياح والأمطار وما يتصل بقرارات البشر غير المضبوطة وما يتصل بالرزق والخصب والجفاف وغيرها كثير.

وهكذا تجد في كل شيء حولك ثوابت ومتغيرات، وعليك أن تنظم حياتك وفقهما كليهما. وفي الوقت الذي تسعى جاهدًا للوصول إلى هدفك عبر التنبؤ بالثوابت، عليك أن تتوقع غيرها بسبب المتغيرات.

ومن خلال ذلك تعيش بين الرجاء والخوف؛ والرجاء يدعوك إلى حمد الله وشكره، بينما يدعوك الخوف إلى الصلاة والدعاء للتوفيق، وما هو إلا بالله سبحانه، مثلما قال الله عزّ وجلّ على لسان نبيه الكريم شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[1].

ثانيًا: ولأن الله يقلب الليل والنهار، ولأن التغير ممكن فإن

(١) سورة هود، آية: ٨٨.

المؤمن يبقى حذرًا لا يطمئن إلى خير يصيبه فقد يفاجئه شر، ولا ييأس من شر يحيط به، فلعل الله سبحانه قضى له من بعده خيرًا كثيرًا.

وهكذا جاء في دعاء عرفة: «**إِلَهِي إِنَّ اخْتِلَافَ تَدْبِيرِكَ وَسُرْعَةَ طَوَاءِ مَقَادِيرِكَ مَنَعَا عِبَادَكَ الْعَارِفِينَ بِكَ عَنِ السُّكُونِ إِلَى عَطَاءٍ وَالْيَأْسِ مِنْكَ فِي بَلَاءٍ**»[1].

٢- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾

لماذا يبقى بعض الناس في عمى مما يحيط بهم من آيات الله في الكائنات في تقليب الليل والنهار؟.

لكي يفقه الإنسان شيئًا، فهو بحاجة إلى أداة للفهم. فمن دون الأذن كيف يسمع؟. ومن دون العين كيف يبصر؟. كذلك القلب المحجوب كيف يفهم الحقائق؟.

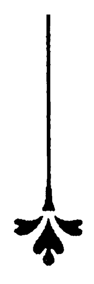
من هنا فإن العبرة التي تعني التحرك من المعلوم إلى المجهول، لا تنفع من لا يملك البصيرة النافذة.

* * *

بصائر وأحكام

* قلب المؤمن -ذو البصيرة النافذة- يتقلب بين الخوف والرجاء، فلا يطمئن إلى نفع قد لا يطول، ولا يقنط عند ضرر قد ينقضي.

(١) مفاتيح الجنان، من دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة.



هكذا تتجلى قدرة الرب

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾

* * *

تفصيل القول:

١ - ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾

بالرغم من وحدة معدن الخلق، ما هذا الاختلاف في المخلوقات، وعلى أية حقيقة تدلنا؟.

أولًا: لو كان خلق الله للكائنات فيضًا كما الفرات تفيض منه الروافد، وكما الشمس تفيض منها أشعتها، لكان المخلوق واحدًا نوعًا. ولكن الخالق أوجد بقدرته التي لا تحد الأشياء، ودلنا باختلافها

على تلك القدرة، وأنه فعال لما يشاء.

وبلغ من اختلاف الصنع حدًّا لا يتوهم متوهم نوعًا من الخلق إلا وسبقت خلقته خياله وتوهمه...

وقد روي عن علي بن الحسين بن فضال، عن أبيه، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام، قال: «قُلْتُ لَهُ: لِمَ خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْخَلْقَ عَلَى أَنْوَاعٍ شَتَّى وَلَمْ يَخْلُقْهُمْ نَوْعًا وَاحِدًا؟.

فَقَالَ عليه السلام: **لِئَلَّا يَقَعَ فِي الْأَوْهَامِ أَنَّهُ عَاجِزٌ فَلَا تَقَعُ صُورَةٌ فِي وَهْمِ مُلْحِدٍ إِلَّا وَقَدْ خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهَا خَلْقًا، وَلَا يَقُولُ قَائِلٌ: هَلْ يَقْدِرُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ عَلَى صُورَةِ كَذَا وَكَذَا إِلَّا وَجَدَ ذَلِكَ فِي خَلْقِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَيَعْلَمُ بِالنَّظَرِ إِلَى أَنْوَاعِ خَلْقِهِ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**»[1].

ثانيًا: لو تأملت في صنوف الخلائق من سماء تزدحم بملايين المجرات التي تحتوي على ألوف الملايين من الشموس والأجرام، لا يمكننا حسابها، بل ولا توهمها، فكيف بالإحاطة بها علمًا؟. ويكفيك من عظيم خلقه سبحانه، أنهم اكتشفوا أخيرًا حفرة سوداء في وسط مجرة طريق التبانة التي تقع شمسنا فيها أكبر من هذه الشمس بأربعة ملايين ضعف.

هذه السماء، أما الأرض فإنها تعج بصنوف الخلق لم يعرف لحد الآن العلماء عدد أنواع الأحياء، فبين من قال: إنها ثلاثون مليون نوع، وبين من رقاها إلى مئة مليون نوع، والإنسان نوع واحد منها.

هذا عدا الموجودات المختلفة من غير الأحياء. فسبحانك يارب قادر لا يعجزك شيء.

---

(١) بحار الأنوار، ج٣، ص٤١.

وهـذه الأحيـاء لـو تأملـت فيهـا لرأيتهـا قـد خلقت مـن ماء، كيـف تنوعت وتعددت، ثـم هذه الكائنـات في الأرض كيف تعددت واختلفـت، وتلـك الأجرام كيف تعـددت حجـمًا ومادة وفلـكًا، و... و... وكلها من جوهر واحد؟!.

وهـذا التعـدد العظيم يخـدم هدفًا مشـتركًا، حيـث تتعامل فيما بينهـا، ويخدم بعضها بعضًا في دائرة عظيمة من الأسـباب والمسببات، وفي تبادل غريب في الأخذ والعطاء، وفي حلقات متداخلة لا توصف. مـن ذا الـذي نظم علاقاتهـا وقدرها بقـدر معلوم، وضبـط كل واحد منهـا بالآخر ولم يدع واحدًا يطغى على المجموع، بل جعلها محتاجة إلى بعضها في حلقات متكاملة؟.

كل ذلك ليدلنا على عظيم قدرته وواسع هيمنته وأنه محيط بكل شيء علـمًا وقدرة ورحمة، سبحانه سبحانه.

٢ - ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

الدلالة الظاهرة لاختلاف الخلق هي القدرة الإلهية، وهي دلالة على مشيئته التي لا تخضع لضوابط من خلقه. كيف؟.

أولًا: إن النظريـة الشركيـة التـي تسربت إلى بعض الفلسـفات البشريـة، والتـي سـميت بنظريـة (الفيـض)، لا يمكنهـا أبـدًا تفسـير الاختـلاف والتعـدد في المخلـوق، خصوصًا وقد قالـوا: إن الواحد لا يصـدر منه إلا الواحد، لأن المولود لا بـد أن يتجانس مع الوالد ما دام يصدر عنه.

ثانيًا: بصيرة الخلق هي التفسـير الوحيد لوجود الكائنات، وأن الله سبحانه كان وحده لا شريك له، وشاء أن يخلق الخلق برحمته فأنشأه

بقدرته من دون أن تحدث في ذاته سبحانه حركة أو تغيير أو تطور. فهو سبحانه لم يلد الخلق ولم يولد من والد سابق، سبحانه.

وكما يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُودًا**»[1].

ثالثًا: صفة الخالقية لربنا سبحانه تقتضي صفة المشيئة التي لا تحد، بل هي هي، فهو فعال لما يشاء. وهكذا تعددت واختلفت أشكال خلقه وأنواع الكائنات ودلت باختلافها على وحدة خالقها.

رابعًا: وهذه المشيئة المطلقة والفاعلة التامة تهدينا إلى أنه على كل شيء قدير، لأن عقولنا القاصرة المحجوبة بكينونتها باعتبارها مخلوقة ترى أن الخلق بذاته مستحيل، وإذا كان الرب قادرًا عليه وعلى أنواع منه، وإذا كان كل شيء مخلوقًا ومحكومًا بالخالقية المطلقة، إذًا لا شيء يحد قدرة الرب.

وهكذا إذا تأملنا الآية وجعلناها وسيلة لرؤية الحقائق المحيطة بنا. وبتعبير آخر؛ جعلناها آية نعبر من خلالها إلى فقه المخلوقات وما فيها من سمات تدلنا على بارئها، نفذت بصيرتنا بإذن الله تعالى إلى عمق حقائق الكون.

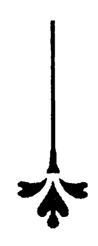
* * *



بصائر وأحكام

* لأن حقيقة الخلق هي الإنشاء، فإن تنوع الكائنات -بالرغم من وحدة جوهرها- دليل قدرته سبحانه التي لا تحد.

(١) نهج البلاغة، من خطبة له عليه السلام في التوحيد.



الله يهدي من يشاء

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾

* * *

تفصيل القول:

ما صلة هذه الآية بالتي قبلها وبالسياق العام لهذه السورة المباركة؟. وما هو دور الهداية الربانية؟.

أولًا: حينما يقرن القلب بسلطان الرب ويسمو إلى حيث القدرة التي لا تحد، قد يسأل إذًا: كيف لنا العروج إلى ذلك الأفق الأسمى؟.

بلى؛ السبيل هو التقرب إليه عبر حبل أنزله إليك متمثلًا في كتابه وفيه آيات مبينات.

وقد سبق في فاتحة السورة أنها آيات بينات، وفي الآية (٣٣) ذكر

أنها آيات مبينات. لماذا؟.

لعل السرّ في ذلك أن القرآن نور، والنور بيّن بذاته ومبين لغيره. كذلك آيات القرآن بيّنة واضحة، بيّنها ربها، كما قال تعالى في الآية (١٨): ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، وهي تبين لنا الحقائق.

وهكذا فإن آياته بينات ببيان الله سبحانه، ومبيّنات توضح لنا الحقائق.

ثانيًا: لأن آيات الله في كتابه تعكس آياته في خلقه، فعلينا أن ننظر من خلال تلك إلى هذه. وهكذا نقوم بواجبين عندما نتلو الكتاب:

ألف: دراسة ما فيه والتدبر في كل آية آية وفي السياق العام، لنعرف الآية معرفة كافية.

باء: دراسة الأشياء من خلال الآيات؛ بمعنى تطبيقها على الكائنات وظواهرها؛ مثلًا إذا قرأنا آية عن الشمس درسنا الآية ودرسنا الشمس من خلالها، وكذلك القمر والنجوم والسماء والأرض وما في الطبيعة من عجائب الخلق. وهكذا إذا مررنا بآية عن المؤمن درسنا أحوال الناس من خلال تلك الآية لنعرف المؤمنين، أو في المنافق أو عن ظواهر الطبيعة مثل ما يصيب البشر من خير أو شر، من مرض أو هلاك جماعي أو حرب أو ما أشبه.

ثالثًا: بالرغم من أن آيات الله مبينات، إلا أنها لا تكفي البشر هدى، وإنما يلزمهم -لبلوغ الحقيقة- توفيق من ربهم، ونور مباشر

يشرق على قلوبهم، ويد غيبية تمتد إلى الأفئدة فتجذبها إلى حيث النور، إلى أسماء الله، وإلى معرفة العظمة. ولذلك تجد المؤمنين يدعون ربهم باستمرار وإصرار: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾[1].

وجاء في الدعاء «**وَأَنِرْ أَبْصَارَ قُلُوبِنَا بِضِيَاءِ نَظَرِهَا إِلَيْكَ حَتَّى تَخْرِقَ أَبْصَارُ الْقُلُوبِ حُجُبَ النُّورِ فَتَصِلَ إِلَى مَعْدِنِ الْعَظَمَةِ**»[2].

أما الآيات فهي توفر الفرصة لمن شاء أن يستقيم على الصراط، وهي حجة الله البالغة على خلقه. وهكذا لا يكفي للإنسان الطالب للهدى مجرد النظر في آيات الله، بل عليه أن يسأله ويتضرع إليه ليهديه، ولكي يثبته على الهداية حتى لا يضل بعد أن هداه الله.

***

بصائر وأحكام

١- آيات الله بينات، وهي توفر فرصة الهدى للإنسان، وعليه أن يتضرع إلى الله تعالى ليهديه، ولولا ذلك ظل في ضلال.

٢- علينا أن نقوم -حين تلاوة الكتاب- بأمرين:

أولًا: التدبر في الآيات.

ثانيًا: التفكر في الخليقة في ضوء تلك الآيات.

---

(١) سورة الفاتحة، آية: ٦.

(٢) بحار الأنوار: ج٩١، ص٩٨.



الطاعة ميراث الأيمان

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

* * *

تفصيل القول:

هـذه منظومة من الآيـات تتكون من هذه الآيـة واثني عشر آية سـبقتها، تُذِّكر بالطاعة للرسـول، وتؤكد أنها ركن أسـاس للإيمان. فما هي الصلة بينها وبين إطار السورة؟. ولماذا نفى السياق إيمان من يتولى عن الطاعة؟.

أولًا: حينما بيّنت هذه السـورة صفات الأسرة الصالحة والبيت الإيماني الرفيع وأنه مشكاة لنور الرب، وكانت من تلك الصفات دوام ذكر الله حتى عند التجارة والبيع، فها هي الصفة الثانية (الطاعة) التي هـي علامة للصفة الأولى. فليس هناك إيمان صادق بالله تعالى من دون

الطاعة للرسول.

ثانيًا: ليس الإيمان أبدًا بالادعاء والتمني أو الرجاء، إلا أنه وقر في القلب، وسكينة في النفس، وقول صادق، وسلوك يعكس قيمًا راسخة في القلب.

وهكذا لا يكفي ادعاء الإيمان ثم عند مواجهة الحقيقة في مواطن الصراع مع النفس وشهواتها، أو مع الأعداء وضغوطهم، ينهار ويتلاشى. إنه -في الحقيقة- ليس إيمانًا، بل مجرد ادعاء الإيمان.

ثالثًا: ليس هذا واقع كل المؤمنين، بل من واقع بعضهم، وعلى الانسان أن يسعى أبدًا ليكون في صف أولئك الصادقين، وذلك بطلب الهدى من الله، وبالاجتهاد من أجل أن يكون إيمانه وقرًا في القلب وليس تمنيًا في النفس فحسب.





بصائر وأحكام

* للأسرة الإيمانية صفتان:

- ذكر الله على كل حال،

- والطاعة للرسول صلى الله عليه وآله وسلم في كل موطن.



لماذا الاعراض عن حكم اللّه؟

﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾

* * *

تفصيل القول:

هذه سمة أساس لهؤلاء الذين يدّعون الإيمان، وينفي عنهم الرب هذه الصفة. كيف أصبح هذا الأمر معيارًا؟. ولماذا فريق منهم (وليس كلهم) يعرض ومع ذلك يحكم عليهم جميعًا بالنفاق؟.

أولًا: من الغايات الرئيسة للشرائع الإلهية، توحيد الناس. أوَليس في التفرقة عشرات الذنوب؛ مثل الحمية والبغي والقتال؟ أوَليست الوحدة قوة للمؤمنين وبها تتحقق أهداف الأمة السامية، بل وتتحقق أيضًا غايات الدين؟.

والقضاء العادل الذي يمثله الدين وأهله هو الكفيل بإزالة أسباب الخلاف، سواءً كانت في أمور الدين أو مصالح الدنيا. فإذا

لم يخضع هؤلاء المدّعون لهذا القضاء، فما هي فائدة إيمانهم، بل كيف نعرف أنهم فعلًا مؤمنون؟.

وهكذا جاء في آية كريمة: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[1].

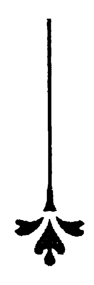
ثانيًا: فيما يختلف فريقان من المؤمنين ثم يتقاضيان عند النبي أو الإمام، فلا بد أن يحكم لأحدهما على الآخر إن لم يتصالحا. فهناك يتمرد الفريق الذي كان الحكم ضده، وهذا في حد الشرك بالله العظيم.

ثالثًا: الأمة الإسلامية عزيزة مقتدرة ذات قاعدة صلبة تتحدى أعاصير الحوادث. وهكذا فهي متماسكة إلى أبعد مدى. ومثل هذه الأمة هي التي يريدها كتاب الله المجيد، وعلينا أن نسعى جاهدين للارتفاع إلى مستواها، لا أن نحاول إخضاع قيم الدين لمراكز ضعفنا وأسباب تفرقنا وعوامل الهزيمة فينا.

وقد صاغ القرآن الكريم بقدر كبير هذه الأمة. وذلك شاهد على إمكانية صياغته لنا بمثل ذلك إن كنا نستجيب لنداء القرآن ونسلم لتعاليمه، وذلك فضل عظيم من الله علينا أن وفقنا له.

* * *

(١) سورة النساء، آية: ٦٥.



خطر الانتقائية على الإيمان

﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

* * *

تفصيل القول:

الإيـمان بالحق يعني جعله محور السلوك، أما من يؤمن به حين تقتضي مصلحته، ويعرض عنه حين تتعارض مع الحق مصالحه، فإن المصلحة وليس الحق محوره. ولهذه الانتقائية في الإيـمان مضاعفاتها الخطيرة.

أولًا: الحق لا يتعارض ومصالح البشر العليا، إنما تتعارض مع بعض المنافع المؤقتة أو حتى مع بعض ما يزعم الفرد أنه مصلحته، وليست كذلك.

أوَليست الأحكام تابعة للمصالح والمفاسد الحقيقية؟.

إذًا فقصر النظر عند هذه الفئة هو الذي يجعلهم يعرضون عن الحق حينًا، ويذعنون له حينًا. وهذا هو الفرق بين مؤمن وغيره. إن الأول يرى أن الله سبحانه قد قدر له كل خير، وأن الدين هو دليل ذلك الخير وليس غيره.

ثانيًا: إن المطلوب هو الإذعان للحق أبدًا، وهذا الإذعان هو التسليم الذي لا يقتصر على القبول الظاهري له، وإنما التسليم النفسي أيضًا. وهذا ما أشار إليه الذكر في آية المائدة، ألَّا يجدوا في أنفسهم حرجًا من قضاء الرسول ﷺ. قال الله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[1].

ولعل السبب أن من يعترض على الحق بقلبه، فهو يعترض أيضًا على مصدر الحق والآمر به وهو الدين، مما يجعل هذا الشخص مجردًا عن أي التزام وأي دين.

ثم إنه لا يزال يتحايل على الحق حتى يعارضه علنًا، أو يراوغ في تطبيقه. وقد قال الله سبحانه: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾[2].

***

(١) سورة النساء، آية: ٦٥.

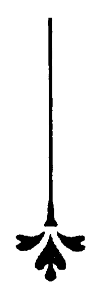
(٢) سورة الروم، آية: ١٠.

بصائر وأحكام

١- مـن قيم الدين الوحدة، والقضاء العادل وسـيلتها، ومن لا يسلّم له يخسر الوحدة ودينه معًا.

٢- علينـا التسـامي إلى حيـث يريد منـا الدين، وليـس صياغة الدين بحيث يتناسب ومستوانا الداني.

» الإيمـان بالحق يعـني جعله محور السـلوك، أما من يؤمن به حـين تنقضـي مصلحته، ويعرض عنه حين تتعارض مع الحق مصالحه، وهذه الانتقائية في الإيمان مضاعفاتها خطيرة.



دركات التسافل إلى هاوية النفاق

﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٥٠ ﴾

* * *

تفصيل القول:

أربع حقائق ساقها القرآن هنا، قد تكون وراء رفض الحق بعد القضاء.

أولًا: النفاق مرض، والسبب أنه ازدواجية متعمدة..

إنّه معالجة سيئة للصراع بين الضمير الإنساني والفطرة الإيمانية والعقل الموهوب للبشر، وبين الشهوات العاجلة والنفس الأمارة بالسوء. كيف تكون معالجة سيئة؟.

لأنها تتمثل في إخفاء الواقع الفاسد المرير. فلا أمل في إصلاحه

وإظهار ما يخالفه، كالذي يخفي القاذورات تحت فراش نومه، فأنى له كنسها، وهل يتخلص من جراثيمها؟.

ثم إن المنافق يبقى أبدًا في صراع مع ضميره، ويحاول أبدًا خداع الناس، كما يحاول دائمًا حبك أكاذيب من أجل ذلك، وهو في هلع دائم وتوتر مستمر. فهل هذه حياة؟ فأين سكينة الإيمان، وأين راحة الضمير؟.

وهذا التوتر يؤثر شيئًا فشيئًا في جسده ويحوله إلى مريض جسدي أيضًا. وهكذا يكون قد خسر الدنيا والآخرة.

يقول ربنا سبحانه: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾[1].

ويقول سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾[2].

ثانيًا: هناك من لا يعاني فعلًا من مرض النفاق ولكنه ضعيف الإيمان، فإذا واجه ظرفًا صعبًا فقد إيمانه وطفق يشك في مبادئه وطفق يتهاوى إلى درك النفاق.

وقد قال الإمام الحسين عليه السلام وهو يصف مثل هؤلاء الناس: **«إِنَّ النَّاسَ عَبِيدُ الدُّنْيَا وَالدِّينُ لَعْقٌ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ يَحُوطُونَهُ مَا دَرَّتْ مَعَايِشُهُمْ فَإِذَا مُحِّصُوا بِالْبَلَاءِ قَلَّ الدَّيَّانُون»**[3].

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٠.

(٢) سورة المنافقون، آية: ٣.

(٣) بحار الأنوار: ج٧٥، ص١١٦.

ثالثًا: وطائفة ثالثة قد لا تفقد الإيمان رأسًا، ولكنها تخشى أن ينالها ظلم بسبب حكم الله القاضي ضد مصالحها. ولعل هؤلاء هم الذين يفرقون بين العقائد والأحكام، لذلك تراهم يتظاهرون بالإيمان بالمبادئ ولكنهم عند التطبيق يهربون من الحكم الإلهي إلى التشريع الجاهلي.

وقد قال الله سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾[1].

رابعًا: الذي يجمع هؤلاء في سياق واحد هو الظلم. لماذا؟ لأن هؤلاء يريدون أن يأكلوا أموال الناس بالباطل، فتراهم يتوسلون بأحكام الطاغوت حينًا، وبالريب والشك حينًا، ويتخذون نهج النفاق أحيانًا.

إن البغي هو أساس كثير من المفاسد الاجتماعية والأخلاقية، وإذا قرر الإنسان ألّا يأكل من أموال الناس شيئًا بالباطل، كما قال ربنا سبحانه: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقًا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[2].

أقول: إذا فعل ذلك فإنه يتخلص من كثير من أسباب الضلالة. وقد قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «**حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ**»[3].

ولعل الآية التالية توضح هذه الآية الكريمة، حيث يقول ربنا

---

(١) سورة النساء، آية: ٦٠.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٨٨.

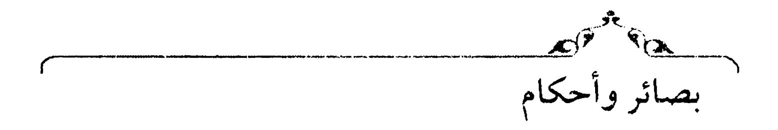
(٣) وسائل الشيعة: ج١٦، ص٩.

سبحانه: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾[1].

حيث نستفيد من هذه الآية أن دركات التسافل إلى النفاق هي التالية:

١- خداع الذات ﴿فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾.
٢- التردد وعدم الإقدام ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾.
٣- الشك ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾.
٤- التشبث بالأماني ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾.

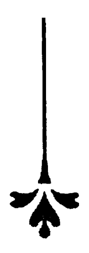
* * *



بصائر وأحكام

* النفاق مرض خطير ومعالجة خاطئة للصراع بين النفس اللوامة والأخرى الأمارة بالسوء، وصاحبه في توتر مستمر وهلع من فضح سريرته.

(١) سورة الحديد، آية: ١٣-١٤.



ميزات المؤمن الصادق

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾

* * *

تفصيل القول:

عبر المقابلة يعرف المرء الحقائق. فأنت لا تعرف المنافق حقًّا، إلا إذا عرفت المؤمن الصادق، لماذا؟.

أولًا: من أشد وساوس إبليس تأثيرًا في الناس بعث اليأس وإضعاف العزم، فيقول -مثلًا-: لا يمكن أن تصبح مؤمنًا. كيف تقدر على ترك مصالحك وتسلِّم للحق؟.

والبرهان الدامغ ضده هو وجود المؤمن المسلِّم كاملًا للقضاء الإسلامي، ذلك لأنه مثلك من لحم ودم وله مصالحه وفي قلبه شيطان يوسوس إليه، ولكنه بقوة إيمانه يردع نفسه ويكبح هواه ويقمع شيطانه.

ثانيًا: المؤمن يسمع أولًا ثم يطيع، وسماعه لا يكون تعنتًا أو بخلفية معينة، إنما يسمع ليعقل وليطبق. أما المنافق فإنه لا يسمع الحق، بل يراوغ؛ وحتى إذا صك أذنه شيء من الحق أوّله لما يناسب هواه تأويلًا. من هنا كان واجب المؤمن الأول هو: البحث عن الحق بتجرد لتطبيقه بتسليم.

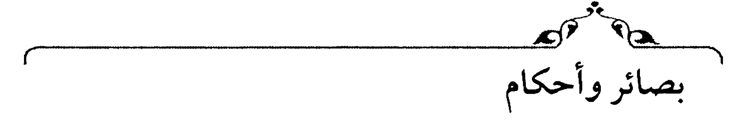
ثالثًا: وهؤلاء قد يخسرون القضاء مؤقتًا، ولكنهم يربحون الحياة ويكون من نصيبهم السعادة والفلاح.

رابعًا: نستفيد من الآية ضرورة الاستجابة عند الدعوة إلى التحاكم إلى الله ورسوله ﷺ، وكلمات الله في كتابه وأهل بيت النبي عليهم السلام، ولخلفائهم من الفقهاء رحمهم الله، لأنهم اليوم السبيل إلى الله ورسوله ﷺ.

وليس الخلاف الذي يجب أن ننهيه بالرجوع إلى الثقلين؛ ليس هو الخلاف حول حدود أرض أو شجار حول عقد تجاري أو ما أشبه. ليس ذلك فقط، وإنما يشمل كل شيء يثير النزاع بين المؤمنين، من قضية سياسية أو نهج ثقافي أو إستراتيجيات اقتصادية أو ما أشبه.

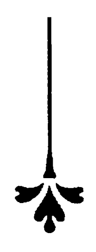
وبكلمة؛ الرجوع إلى الدين يجب أن يكون بحيث يوحد الأمة ولا يدعها عرضة للصراعات المدمرة، والله المستعان.





بصائر وأحكام

* وحدة المؤمنين قيمة سامية، وسبيل تحقيقها الرجوع إلى الله والرسول ﷺ (الكتاب والعترة عليهم السلام) في كل ما يسبب الخلاف من أصغر الشؤون إلى أعلاها.



لكي نكون من الفائزين

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

* * *

تفصيل القول:

لكي نفوز لا بد من ثلاثة شروط:

- الطاعة.
- وخشية الرب.
- وتقواه.

فما هو الفوز، وما هي أبعاد تلك الشروط؟.

أولًا: كل بشر ينطوي قلبه على تطلعات سامية، لا يعرف أكثر الناس كيف يحققونها فيحبطون وتتحول أمانيهم إلى أحلام أو كوابيس أو حتى عوامل للفساد. وإذا عرفنا كيف تُحقَّق تلك الطموحات، فإن

ذلك هو الفوز. وربنا سبحانه وبواسع رحمته بعباده يدلنا على السبيل اللاحب للفوز.

ثانيًا: الطاعة تعني ارتفاع البشر إلى مستوى تطبيق المناهج الإلهية. ولا ريب في أن كثيرًا من الناس تخونهم العزيمة، ويقعد بهم الكسل، وتعاجزهم الظروف من أن يسموا بأنفسهم إلى حيث الطاعة لله وتطبيق مناهج الرب.

ثالثًا: الطاعة قد تكون عادة، كما يصلي الفرد ويصوم ويزكي ويحج، ولكنه يفعل كل ذلك استرسالًا منذ صغره، واستجابة للمجتمع المؤمن من حوله.

إنما الطاعة عند التحديات الصعبة هي ميزان الفوز، وأساسها الخشية من الله، وهي ميراث المعرفة بالرب؛ لأن الطاعة بلا أساس الخشية، قد تتلاشى عند مواجهة التحديات.

رابعًا: والتقوى -بدورها- ميراث الخشية، فمن خشي الرب اتقاه. والتقوى زاد المؤمن عند تعرضه لأمواج الفتن، وعند مقاومته لشهوات النفس، وعند خور عزمه وفشل إرادته.

يقول ربنا سبحانه: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾[1].

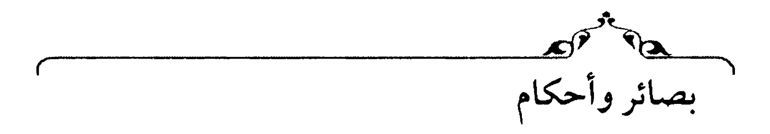
خامسًا: في هذه المنظومة من الآيات وآيات قرآنية أخرى اقترنت طاعة الله بطاعة الرسول. لماذا؟. هل لأن طاعة الله تعالى إنما تعرف بطاعة النبي، أم لأن الطاعة لله تتمثل في ثوابت الشريعة بينما طاعة الرسول ﷺ تتصل بالمتغيرات (مثل الحرب والسلم والقضاء

(١) سورة البقرة، آية: ١٩٧.

و.. و..)، أم لأن طاعة الله تتجلى في التسليم لكتابه الكريم وطاعة الرسول ﷺ تتجلى في سنته وعترته عليهم السلام؟.

كل ذلك صحيح وحق، ولكن تجدر الإشارة أن التعبير هنا وفي أمثاله عن النبي يأتي بـ (الرسول) لعله لبيان أن طاعة الرسول ليست في عرض طاعة الله، بل في طولها؛ أي إنها امتداد، لكي يطرد وسوسة الشرك. فلأن النبي ﷺ يحمل رسالة الله تجب طاعته، والله المستعان.





بصائر وأحكام

* الخشية ميراث الإيمان، وهي أساس التقوى، وثمرتها الطاعة لله وللرسول عند التحديات الكبرى.



متى وكيف يتبين صدق الإيمان

﴿ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

* * *

تفصيل القول:

لماذا تقدم هؤلاء باليمين قسمًا بالخروج للحرب عندما يأمرهم النبي ﷺ والقيادة الربانية؟.

أولًا: من أهم ما يميّز المؤمن عن المنافق طاعته عند الاختلاف وفي القتال. وهكذا بعد أن ذكَّرنا الرب بالأول، ذكَّرنا بالثاني. فمن صدق الله فيما عاهده كان مؤمنًا. أما الذي يبايع في السلم ويخون عند الحرب، فإنه ليس مؤمنًا حقًّا، فلعله حلف يمينًا من أجل الاستفادة من مزايا المقاتلين، أو لكيلا يطرد من المجتمع المسلم الذي يعتبر كله مقاتلًا، أو لأنه كان يتمنى الإيمان ولا يعرف حقيقته وإنما يظنه أنه مجرد الادعاء.

ثانيًا: ردهم السياق بأن طاعتكم معروفة سلفًا، ويمينكم لا يغير من الواقع شيئًا، وإنما الذي يغيره العمل.

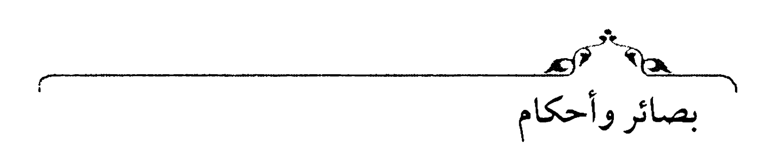
وقد قال ربنا عن رجال مؤمنين حقًا: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[1].

ثالثًا: بين القول والعمل، بين التمني والتحدي، مسافة طويلة لا يطويها إلا من عقد كل عزمات قلبه على قطع المسافة بالتوكل على الله سبحانه.

رابعًا: كيف يستطيع الإنسان انتزاع جذور النفاق من نفسه حتى لا يقول إلا ما يعمل به، ولا يتولى عندما لا يكون الحق معه عند القضاء، وعندما يؤمر بالقتال؟.

الطريق إلى ذلك هو الإيمان بالله وبأسمائه الحسنى واستحضار عرفانه عند كل حالة وظاهرة. فمن يقول شيئًا يسجل عليه ويطالب به إذا عاهد عليه، ومن يعمل عملًا صغيرًا أو كبيرًا يكتب عند الله ويحاسب عليه.

* * *



بصائر وأحكام

* عند القتال -كما عند الاختلاف- يتبين صدق الايمان، ولا تنفع اليمين إلا إذا صدقها العمل بالعهد عند المواطن.

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢٣.



أطيعُوا اللّه وأطيعُوا الرسول

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾

* * *

تفصيل القول:

على الرسول أن يبلغ الرسالة، وعلى الناس أن يستمعوا ويستجيبوا، وكل يُسأل -يوم القيامة- عما كلّف به. ماذا تعني هذه البصيرة في واقعنا؟.

أولًا: إن إبليس قد يوسوس في الصدور بأن الرسول هو المسؤول عن هداكم وعن نجاتكم وأنكم غير مسؤولين. ولعل أكثر من ينتظر آيات خارقة، أو يتوقع إجبار الهداة له على الهدى، أو يريد أن يكون للرسول جنة يأكل منها، أو قرين من ملك، أو يكون له كنز..

أقول: لعل الكثير من هؤلاء هم ممن زعم أن الهداية هي مسؤولية الرسول.

كلا؛ إنما على الرسول ﷺ البلاغ وبقية المسؤولية على الناس. وما المسؤولية إلا التبعة التي تلحق الإنسان جراء فعل شيء أو ترك آخر. وعلينا جميعًا هذه المسؤولية، حيث إننا حملنا الرسالة كما الرسول، بفارق أنه حملها حتى يبلغها إيانا ونحن حملناها حتى نستجيب لها ونعمل بها.

ثانيًا: والاستجابة للرسالة إنما تتم بعد طاعة الرسول طاعة مستمدةً من طاعة الله بصفتها استمرارًا لها؛ طاعة في ثوابت الشريعة كالصلاة والزكاة، وطاعة في متغيرات الحياة كالسلم والحرب.

ثالثًا: وطاعة الرسول سبيل إلى الهدى، حيث إن الله سبحانه جعل الرسول وسيلته التي قال عنها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1].

والرسول يدعو لمن يطيعه بالهداية، حيث كان يقول ﷺ: «**اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**»[2]. والرسول يأمر بإقامة الشعائر -كالصلاة والزكاة والحج- وهي وسائل هداية.

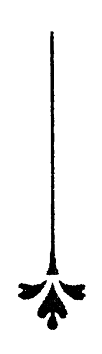
كما أن النبي ﷺ قد أمر بمنظومة متكاملة من التعاليم الأخلاقية والآداب الاجتماعية وغيرها، وهي كلها وسائل هداية.

وكلمة أخيرة؛ الهداية هدف عظيم، وبلوغها صعب مستصعب، ولن يصل المرء إليها إلا بجهد بالغ ومشقة كبيرة.

(١) سورة المائدة، آية: ٣٥.
(٢) بحار الأنوار: ج ٢٠، ص ٢٠.

بصائر وأحكام

* الاهتداء إلى الحق مسؤولية كل إنسان، وليس على الرسل إلا البلاغ، وبعده على الناس الاستجابة والطاعة في الثوابت والمتغيرات.



شروط الاستخلاف في الأرض

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (٥٥) ﴾

* * *

تفصيل القول:

١ - ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ ﴾

ما صلة هذه الآية الكريمة بالآية التي سبقتها وبإطار السورة؟.
وما شروط الاستخلاف في الأرض حسب الآية، وما أبعاده؟.

أولًا: إطار سورة النور الأسرة التي هي مشكاة نور الله، والأسرة هذه قاعدة المجتمع الفاضل الذي يتكامل حتى يبلغ مرحلة الاستخلاف في الأرض.

وقد بيّن السياق في الآية السابقة أهم شروط الاستخلاف المتمثل في طاعة الله وطاعة الرسول حتى يبلغ المرء درجة الهداية.

وبقي أن نعرف أن الطاعة التامة المتمثلة في الإيمان والعمل الصالح قد تصل بالمجتمع إلى حالة التمكين في الأرض.

ثانيًا: وعوامل الاستخلاف؛ الطاعة لله والطاعة للرسول، ثم التسليم للقيادة الربانية.

والعمل الصالح بعد الإيمان لا يقتصر فقط على العبادات، وإنما يتسع ليشمل كل الواجبات؛ مثل أمور المعاش من زراعة وتجارة وصناعة وعمران وتقدم في كافة حقول الحياة، كما يشمل أمورًا تتصل بالدفاع، مما قال ربنا سبحانه فيه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2].

وأخيرًا يشمل التقدم العلمي في كافة الحقول، حيث قال ربنا

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٦٠.
(٢) سورة آل عمران، آية: ٢٠٠.

سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[1].

ولك أن تتصوَّر أمة تطيع الله وتطيع الرسول وتسلم أمرها لقيادة ربانية وتعمل الصالحات، وبذلك المعنى الواسع لها، لك أن تتصور أين تصل هذه الأمة، وكيف تتحدى العقبات ثم تطوي المسافات بين هوة التخلف وقمة الحضارة؟.

ثالثًا: هناك طموحات ثلاثة لكل مجتمع إيماني:

ألف: التغلب على العدو واستخلافه.

باء: التمكن والسلطة السياسية.

جيم: الاستقرار والأمن.

وهذه هي التي يتفضل الله بها على الصالحين من عباده. أما الاستخلاف فقد أنذر الله الظالمين بأنهم يهلكون إذا تمادوا في غيهم ولم يستجيبوا للرسل.

قال الله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾[2].

وشهادة التاريخ على هذه البصائر كافية لمن ألقى السمع وهو شهيد، بالرغم من أن المستضعفين وهم يعيشون في أشد الظروف وأعتاها يصعب عليهم تصديق هذه الحقيقة، ولكنها الحقيقة التي دلت عليها عشرات شواهد التاريخ، وقد أشار ربنا إلى ذلك بقوله سبحانه: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

---

(١) سورة المجادلة، آية: ١١.

(٢) سورة إبراهيم، آية: ١٣-١٤.

أما الدين المرتضى وما فيه من المبادئ والأحكام والوصايا والتعاليم فإنه يُصبح هو الحاكم القوي في الأرض، بديلًا عن أحكام الشرك وقوانين الكفر.

ولعل في الآية إشارة إلى نعمة الاستقلال التي يمنّ بها ربنا على عباده الصالحين، حيث لا يخضعون للطغاة والجبابرة ولا يستسلمون للضغوط المختلفة سواء كانت من الداخل أو الخارج.

بقيت النعمة الثالثة وهي الأمن، التي قلّما تنعم بها الدول الأخرى، حيث إننا لا نجد دولة إلا ويهددها عدو من الداخل أو الخارج، بينما الدولة الإسلامية التي يبشر بها ربنا سبحانه تبلغ من العدالة والحرية والاستقرار في الداخل، ومن المنعة والقوة في الخارج، مستوى يجعل أعداءها أضعف من أن يهددوها ويشكلوا خطرًا عليها.

رابعًا: ونعمة الأمن الداخلي والخارجي تبقى ما دامت الصفة الأساس لهذه الدولة باقية، وهي الإيمان بالله سبحانه.

إن الله سبحانه بيّن في آية كريمة، أن الأمن من نصيب المؤمنين الصادقين. قال الله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[1].

٢- ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾

لماذا هذا الإنذار هنا؟.

أولًا: لأن الناس قد تتراخى إرادتهم عند النعمة، وينامون على حرير الأماني، فيكفرون بالنعم، بينما عليهم أن يعرفوا أن نعم

(١) سورة الأنعام، آية: ٨٢.

الاستخلاف والتمكين والإستقرار والأمن وغيرها موجودة بوجود عواملها، وقد قال ربنا سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1].

ثانيًا: الفسق هو الخروج من إطار التقوى، والفاسق يلحقه جزاء فسقه عاجلًا أو آجلًا، فكلما ابتعد عن الشرائع نالته بقدره الصعاب.

ويبدو أن الكفر هنا يقابل الشكر، وهكذا كان نعت الكافر بالفاسق. وكما أن شكر كل نعمة يتناسب وطبيعتها، كذلك الكفر بها. فشكر نعمة الاستخلاف ترك الظلم وتجنب الطغيان والفساد، وقد قال ربنا سبحانه لبني إسرائيل (ولكل من كان مثلهم) بعد نجاتهم من آل فرعون: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾[2].

أما شكر نعمة الدين، فهو الاستقامة عليه والاستجابة لتعاليمه في الثقافة والتشريع والأخلاق. والكفر بها عكس ذلك، حيث ذكَّرنا ربنا بأولئك الذين ورثوا الكتاب فضيعوه، حيث قال سبحانه: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[3].

وشكر الأمن الطاعة لولاة الأمر والرجوع إليهم في حلّ الخلافات والصبر والمصابرة، والاستعداد أبدًا للدفاع عن القيم.

* * *

(١) سورة الرعد، آية: ١١.
(٢) سورة إبراهيم، آية: ٧.
(٣) سورة مريم، آية: ٥٩.

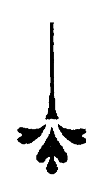
بصائر وأحكام

١- الأسرة قاعدة المجتمع المؤمن، وكلما تكاملت تكامل المجتمع، حتى يبلغ المسلمون مستوى الاستخلاف في الأرض.

٢- و من أسباب الاستخلاف والتمكن في الأرض، الطاعة لله وللرسول وللقيادة الربانية والعمل الصالح في كل الحقول.

٣- أمن المجتمع الإسلامي رهين عدالته وقوته.

» الفسق هو الخروج من إطار التقوى، والفاسق يلحقه جزاء فسقه عاجلاً أو آجلاً، فكلما ابتعد عن الشرائع نالته بقدره الصعاب.



ركائز الشريعة بين الصلاة والزكاة

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾

* * *

تفصيل القول:

دعامتا ثوابت الشريعة؛ الصلاة والزكاة، ودعامة متغيراتها الطاعة. كيف؟.

أولًا: الصلاة توثق علاقة البشر بربهم، وتبرمج حياتهم وفق دينهم، وتصوغ شخصياتهم أفرادًا ومجاميع في بوتقة الإيمان، وترسخ فيهم القيم المثلى.

ولذلك فهي عمود الدين وقربان كل تقي ومعراج المؤمن وخير موضوع، وهي كما قال [illegible] ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ

﴿وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ﴾[1].

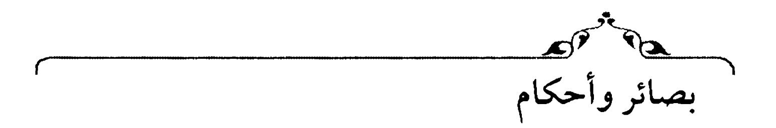
أما الزكاة فهي تنظم علاقات الناس ببعضهم وتخفف من حدّة الطبقية وتؤسس للمجتمع وللدولة، إلى جانب أنها تطهير للنفوس من المادية.

قال الله سبحانه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْۗ﴾[2].

ثانيًا: وطاعة النبي والأئمة عنوان المجتمع الفاضل، لأنها تؤمن الوحدة وتطلق التنافس الحر في المجتمع بعد فكه من أغلال الخلافات والصراعات العقيمة.

وهكذا تستدر الرحمة الطاعة للقيادة الربانية بعد الصلاة والزكاة. والرحمة الإلهية تتمثل حينًا في الاستخلاف في الأرض -كما سبق- وقد تكون في حفظ الأمة من عوادي الدهر ومن فتنة الظالمين.





بصائر وأحكام

* الصلاة والزكاة ركائز الشريعة، لأنهما تبرمجان صلة الإنسان بربه وبالآخرين، والطاعة ركيزة الوحدة ووسيلة التنافس على الخيرات وسبب الرحمة.

(١) سورة العنكبوت، آية: ٤٥.
(٢) سورة التوبة، آية: ١٠٣.



كلا، لا يُعْجزُ الكافرون

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾

* * *

تفصيل القول:

بعدما أكد السياق استخلاف الصالحين في الأرض، كان **السؤال**: كيف أن قوى الكفر تهيمن على البلاد؟.

فجاء **الجواب**: كلا، إنهم غير معجزين في الأرض. كيف؟.

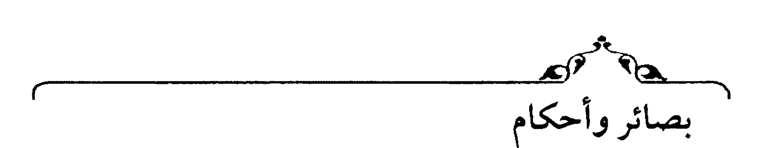
أولًا: بما أن الإيمان بالله واتباع نهج الدين قاعدة راسخة للحياة الاجتماعية، باعتبارها متوافقة مع سنن الله سبحانه في خلقه، ونظام الكائنات المحيطة بنا، فإن الكافرين يفقدون هذه القاعدة الصلبة، ولذلك فإن بنيانهم على جرفٍ هارٍ، وأيّ هزة يتعرض لها كفيلة بإنهائه.

ثانيًا: ولذلك فإن مظاهر القوة والعزة عند الكفار ينبغي ألَّا تغرنا ولا تحبط عزائمنا في مواجهتهم، ولا يوسوس إبليس في نفوسنا بأنه كيف يستخلف الله الصالحين في الأرض مع تلك القوى التي يملكها أعداؤهم.

كلا؛ إن هذه الوسوسة لا تجد طريقًا إلى قلوب المؤمنين الواثقين من نصر الله سبحانه، بينما تجد كثيرًا من الناس تخدعهم هذه المظاهر عن دينهم، وتجعلهم يستسلمون لليأس أو يخضعون لضغوط الكفار.

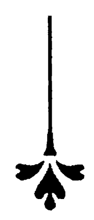
ثالثًا: حتى هذه الأيام التي يعيش الكفار خلالها في أمن ظاهر ونعمة نسبية، سوف تعقبها نار جهنم. فما فائدة نعمة زائلة تعقبها نار خالدة، والعياذ بالله؟.

* * *



بصائر وأحكام

* الإيمان بالله وما نزل من الحق والسنن المهيمنة على الخلق، إنه قاعدة صلبة للصالحين يفقدها الكفار، ولذلك فإن بناءهم على جرفٍ هارٍ، وهكذا فإنهم غير معجزين في الأرض.



البيت الإسلامي ومواعيد الخلوة

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ۚ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) ﴾

***

تفصيل القول:

١ - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ۚ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾

ابتدأ سياق هذه السورة بالأسرة، وأفاض الحديث فيه، ثم انتقل

من الآية (٤١) إلى الآية (٥٧) إلى بيان ملامح المجتمع الإسلامي، وعاد السياق إلى بيان بصائر عن الأسرة. لماذا، وما هي تلك الحقائق؟.

أولًا: الأسرة هي الوحدة الاجتماعية، وتتأثر الأمة الإسلامية بها سلبًا وإيجابًا، وعلينا -ونحن نصوغ الأسرة- أن نهتم بواقع الأمة لنعرف ما هي ملامحها التي لا بد أن نصوغها من خلال صياغة الأسرة.

ثانيًا: هناك حرمتان للبيت؛ حرمة خارجية، حيث لا يجوز اقتحامه من دون إذن. وحرمة داخلية، لا يجوز لأعضاء الأسرة أن يطوَّفوا داخله إلا ضمن حدود. والسبب أن الحكمة التي اقتضت حرمة البيت عن الغرباء قد تقتضي حرمته عن بعضهم بعضا. ما هي تلك الحكمة؟.

تتمثل الحكمة في الحرية التي ينشدها البشر في إطار حكم الله وقيم الحق. فلأن المسلم الملتزم محتشم، فلا يجوز الدخول على بيته من دون إذنه. وللسبب ذاته أيضًا، لا يجوز لأبنائه الدخول عليه في غرفة نومه في ساعات خلوته إلا بإذنه.

ثالثًا: هذه الأوقات الثلاثة: قبل الفجر وبعد العشاء وعند الظهيرة لمن يضع ثيابه، هي التي ينبغي أن يختارها الفرد لراحته. أما عند الفجر فإن الكائنات تستيقظ ويجدر بالإنسان أن يتناغم معها.

وفي الحديث عن الإمام محمد الباقر عليه السلام، قال: «... **فَعَلَيْكُمْ بِالدُّعَاءِ فِي السَّحَرِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ، فَإِنَّهَا سَاعَةٌ تُفَتَّحُ فِيهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَتُقَسَّمُ فِيهَا الْأَرْزَاقُ، وَتُقْضَى فِيهَا الْحَوَائِجُ الْعِظَامُ**»[1].

---

(١) الأصول من الكافي، ج٢، ص٤٧٨.

أما بعد العشاء فإنه أفضل ساعة للنوم والاستراحة. وهكذا نستفيد من هذه الآية أفضل تنظيم للوقت بين النوم واليقظة. فساعات الصباح الأولى، ثم من بعد النوم عند الظهيرة، هي أفضل أوقات الشغل. أما الاستراحة فمن بعد صلاة العشاء وعند الظهيرة.

رابعًا: الإسلام دين التعاون الذي يبدأ من محيط الأسرة، حيث يختلط أبناؤها فيما بينهم بلا تكلف، فهم يطوفون بينهم باستمرار وبكثافة للتعاون في أداء مهام البيت؛ مثل إعداد الطعام والشراب وسائر مستلزمات الحياة؛ مثل البناء والتنظيف والترتيب والإنتاج الزراعي والصناعي، وما أشبه.

بلى؛ يجب أن يكون هذا الطوفان في ساعات معينة، حتى لا يسبب أي إزعاج لأبناء الأسرة، خصوصًا الكبار في السن منهم الذين يحتاجون إلى الراحة والخلوة أكثر من غيرهم.

وهكذا لا يحبذ الإسلام حسبما يبدو لنا من هذه الآية ومن منهاج الإسلام في العيش المشترك، لا يحبذ العيش الانفرادي الذي قد نجده عند الإنسان الغربي من العيش في الشقق الضيقة والخاصة بعائلة صغيرة.

وحينما ننظر إلى طبيعة حياة الأسرة المؤمنة، نجد هذا الخط الإسلامي الذي يحفل بمعاني التعاون والتكامل والتكافل.

٢- ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

العلم هو الكشف المباشر والمحيط بالحقائق، والحكمة هي تنظيم الحياة وفق الأسس العلمية والقيم الفطرية. فما هي هذه الآيات التي بينها الرب وزادنا بها علمًا من علمه الواسع، وحكمة من حكمته البالغة؟.

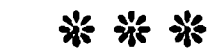
أولًا: ما بيّنه ربنا من تنظيم الحياة الاجتماعية في الأسرة، التي لو تدبرنـا فيه عميقًا فقـد ننفذ من خلالها إلى حقائق أوسـع مدى وأعمق غـورًا. ذلـك لأن الآية تعني العدالة التي تهديـك إلى حقيقة ربما كانت غامضة عليك. فليسـت الآية هي ذاتها حقيقة فقط، بل هي سـبيل إلى معرفة أوسـع؛ مثلًا حينما رفع الإسـلام الحرج عـن الأطفال والتابعين بالطواف بين البيوت (وهي كانت غرف النوم عادة) بعد الفجر، يعني ذلك أن ساعات الصباح الأولى هي ساعات مميزة للنشاط الاجتماعي. أليسـت الطبيعـة كلهـا تسـتيقظ معـك؟ فـأسراب الطيـور تراها تملأ السماء مسـبحة بحمد ربها، سـاعية وراء رزقها. ألا ترى الأنعام كيف تبـدأ برعيها، وحتـى الحشرات (مثـل النملة والنحلة) تنشـط في تلك الساعات.

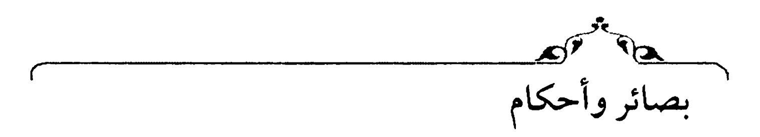
وإذا بحثنا عن السبب، فسنجده في مدى غنى هذه الساعة بالمواد النافعة للجسم، إضافة إلى أنها تأتي بعد راحة طويلة واستيقاظ للخلايا واسـتعداد من قبل أجهزة الجسد للعمل. وهكذا يكتشف العلم اليوم الكثـير مـن أسرار هذه السـاعة، حتى إن الأطباء يعتقـدون أنها أفضل ساعة للرياضة وتناول الأطعمة التي لا تضر الجسد أبدًا.

ثانيًا: من هنا نعرف أن آيات القرآن التي ظاهرها حكم وباطنها علـم، هي إثارات للبحث، وعلينا أن نفتح بهـا مغاليق الفكر ونثير بها دفائن العقول. كيف؟.

حينما تسـمع آية تدبر فيهـا أولًا حتى تفهم ظاهرهـا، ثم احملها كمصبـاح أزهـر إلى محيطك، واسْـعَ لفهـم الزوايا الغامضـة فيه بتلك الآية. ثم طبقها على الواقع الخارجي، وتأمل عميقًا في ذلك الواقع على ضوء تلك الآية، وشيئًا فشيئًا تتكشف أمامك من تلك الحقائق المزيد.

ولا تنسَ أن مفتاح فهم الواقع بالآيات هو الإيمان بحكمة الرب، وأنه لم يقل هذه الكلمة، بل هذا الحرف بلا سبب. هناك تصبح بإذن الله قادرًا على الفهم ولو بعد حين، حيث إنك قد لا تفهم ما تعني الآية في الواقع الخارجي في الوهلة الأولى، ولكن مع الإلحاح تتوضح لك الحقائق بإذن الله تعالى.





بصائر وأحكام

١- الأسرة هي لبنة واحدة في بنيان المجتمع، وكل ما أردناه في المجتمع ينبغي أن نوفره أولًا في الأسرة.

وهدف الإسلام بناء مجتمع متعاون، يحافظ الفرد على خصوصيته، في الوقت ذاته الذي يتعاون مع الآخرين في الشؤون العامة، وكذلك الأسرة.

٢- أفضل تنظيم لوقت الراحة بعد العشاء وعند الظهيرة والاستيقاظ مبكرًا عند السحر.

٣- القرآن ظاهره حكم (وحكمة) وباطنه علم (ومعرفة). وعلينا أن نتدبر في ظاهر القرآن لمعرفة حكمه، ثم نستثير به عقولنا لمعرفة الحقائق على ضوئها.





كيف نتعامل مع الأطفال

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

***

تفصيل القول:

شرّف ربنا هذه الآيات دون سابقتها بأنها آياته. لماذا؟.

أولًا: هناك حدود حاسمة يجب الاهتمام بها، ولا يجوز أن تهمل بسبب العادة والاسترسال. فالطفل حينما يبلغ يدخل في حد جديد، ولا بد من التعامل معه على ذلك الأساس. ومن الخطأ ما نجده عند بعض الأسر من اللامبالاة فيما يتصل بالأطفال، والاسترسال في التعامل معهم كأطفال صغار حتى بعد بلوغهم، مما يسبب لهم مشاكل شتى، منها مثلًا: العلاقة غير المشروعة بين الجنسين في محيط الأسرة أو

العكس وهو الإشباع العاطفي مما يفقدهم فرصة الاقتران بالزواج فيما بينهم أو حتى الارتباط العاطفي بين الجيل الناشئ والجيل السابق، مما يدعو إلى خلخلة في العلاقة الزوجية السابقة والإشباع الجنسي بالجيل الناشئ.

» الطفل حينما يبلغ يدخل في حد جديد، ولا بد من التعامل معه على ذلك الأساس. ومن الخطأ ما نجده عند بعض الأسر من اللامبالاة فيما يتصل بالأطفال.

وهكذا هناك مفاسد شتى تلحق عدم الاهتمام ببلوغ الأطفال والسماح لهم بالطواف بين غرف النوم بحرية وبلا استئذان.

ثانيًا: إذا كان تنظيم أوقات النوم والعمل مما سبق بيانه يهدينا إلى آيات الله في خلقه، فإن استئذان البالغين يهدينا إلى آيات الله في الدين، وهي أهم من الأولى، وربما لذلك شرّف ربنا هذه الآيات بالنسبة إليه تأكيدًا عليها وبيانًا لوجوبها، بينما ذكّرنا هنا كما في الآية السابقة بعلمه وحكمته لأنهما مشتركتان فيما بينهما.

* * *

بصائر وأحكام

* يجب التوقف عند حدود الله لما في تجاوزها من عواقب سيئة. ومن الحدود التعامل مع الأطفال عند بلوغهم كبارًا، خصوصًا في علاقاتهم بالأسرة.



حكم وضع الثياب للقواعد من النساء

﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠) ﴾

* * *

تفصيل القول:

في محيط البيت قد تتواجد كبار السن من النساء، ومن الصعب على الواحدة منهن أن تتحجب، فما هو المعيار للحكم لها بالسماح في عدم الحجاب؟.

أولًا: مثل هذه المرأة يجوز لها ترك الحجاب بشرطين:

ألف: ألَّا ترجو نكاحًا.

باء: ألَّا تتبرج بزينة.

وعند التأمل نجد هدف الشرطين واحدًا، وهو تجنب الإثارة

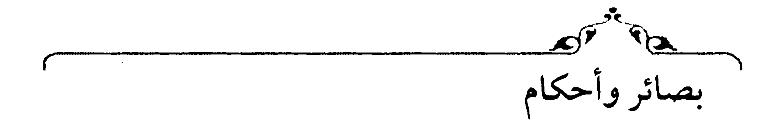
الجنسـية. فهو الحكمة في السـماح لها بوضع الثيـاب. وواضح أن المراد منها تلك التي يجب على غيرها لبسـها، وهي ثياب الخروج من البيت، وهي الخمار.

ثانيًـا: إن هـذا الحكم يعكـس واقعية التشريع الإسـلامي، وأنه يلاحظ الظروف الواقعية للمكلّف ألَّا يكون الحكم عليه سببًا للحرج، كما يعكس تمحور أحكام الدين حول الحِكَم والمصالح.

ثالثًـا: ومـع ذلك فإن العفة مطلوبة لمثلهـن. لماذا؟ لأنهن بوضع الثياب قد يسببن في بعض الإثارة عند مرضى القلوب والشبقين جنسيًّا أو المحرومين منه.

وخاتمـة الآية تدل على ضرورة التقيُّد بأحـكام الشرع خوفًا من الله سبحانه، وعدم تبرير التبرج ببعض الأعذار غير الواقعية.





بصائر وأحكام

* محـور أحـكام التشريـع في حرمـة التـبرج الإثـارة الجنسـية، والحكم الإسلامي يعدل بين القيم والواقعية.



آداب الإسلام في العلاقات الاجتماعية

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

* * *

تفصيل القول:

١ - ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا

عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ ﴾

ما هذه البيوت التي أذن الله لنا الأكل منها، وما حكمة هذا الحكم؟.

أولًا: إن القيمة الأساس في الدين احترام حقوق الناس، وعدم أكل أموالهم بغير حق. ولكن هذه القيمة يجب ألَّا تتحول إلى عائق للتلاحم الاجتماعي، وللنظام القويم؛ مثلًا الإسلام يأمر بالاختلاط مع الأيتام بالرغم من احتمال تجاوز جزئي على بعض حقوقهم، مما يجعل البعض يتحرج من اختلاطهم. كما أن الإسلام يأمر بالرقابة على أموال السفهاء والقصّر، وهنا ومن أجل المزيد من التلاحم بين الأقارب أجاز الدين الأكل من البيوت لكيلا يتحرج الواحد من تناول الطعام في هذه البيوت مما قد يتسبب في القطعية.

ثانيًا: خص السياق بيت الشخص بالذكر، مما طرح سؤالًا عند البعض: أليس الإنسان يأكل من بيته؟.

بلى؛ ولكن قد يتحرج البعض فلا يأكل حتى يسأل عن مصدر هذا الطعام، فلعله هدية لزوجته من أهلها أو هو من أموال أولاده أو ما أشبه.

كلا؛ ما دام الطعام في بيتك فكل منه هنيئًا حتى تعرف أنه حرام عليك.

ثالثًا: الطبقة المحرومة في المجتمع، كالأعمى والأعرج وسائر المعوقين الذين أطلق السياق عليهم اسم المريض حسب الظاهر، إن هذه الطبقة ذات حق في أموال المجتمع. أوَليس لكل إنسان الحق في

الطعام والعيش الكريم؟

وما دام الفرد عاجزًا عن تأمينه لنفسه فحقه في أموال الناس جميعًا.

٢- ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾

ماذا يعني هذا الترتيب في سرد البيوت؟.

أولًا: إن هذا الترتيب هو بالضبط ترتيب الإرث وفرائضه في الإسلام، وهو يعكس سنة الله في العلاقات الأسرية.

ثانيًا: السماح بالأكل من هذه البيوت يرفع الحرج من التطواف بينها من قبل الأسرة الكبيرة التي كانت تتشكل منها التجمعات السكنية سابقًا، مما يزيد من التلاحم الاجتماعي الذي هو هدف أساس من أهداف المجتمع المسلم.

ثالثًا: رفع الكلفة بين المرء وأصدقائه أو بينه وبين الأمناء، إنه هو الآخر يساهم في المزيد من التلاحم الاجتماعي، مما يؤدي إلى صلابة قاعدة المجتمع وزيادة قدراته لمواجهة التحديات.

رابعًا: لعل المراد من قوله سبحانه: ﴿جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ الإشارة إلى حالتين:

الأولى: عندما تجتمع الأسرة بمناسبة معينة فيما بينهم، حيث يقدم الطعام للجميع.

الثانية: حالة الزيارات الخاصة أو الخاطفة لبعض أبناء الأسرة الكبيرة لبعضهم. والله العالم.

٣- ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

في ختام الآية التي تضمنت آداب التعامل داخل الأسرة، نجد عدة آداب، فما هي؟.

أولًا: أدب السلام الذي يتبادله المؤمنون عند التلاقي، والذي يعكس جملة أحكام الشرع في العلاقات الاجتماعية القائمة على أساس الاحترام المتبادل، كما يعكس الروح الإيجابية التي تنضح بالحب والإكرام.

ثانيًا: هذه التحية هي من عند الله، وهي مباركة تسبب في استدرار الرحمة الربانية، وهي تطيب حياة الأمة، لأنها تضفي علينا مسحة معنوية توصلها إلى رحاب الرب، حيث يشترك المؤمنون في حبه والتقرب إليه وكأنهم عنده في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

ثالثًا: إن هذه الآيات توفر لنا فرصة للتفكر ومن ثم للتعقل، حيث إنها تفتح أمامنا آفاق المعرفة، وتجعلنا نكتشف الحقائق مباشرة ونستفيد منها في شتى حقول الحياة بإذن الله تعالى.



بصائر وأحكام

١- ينبغي ألَّا يصبح احترام أموال الآخرين عائقًا أمام التلاحم الاجتماعي.

٢- للمحرومين حق الرزق في أموال المجتمع، والتحية هي صبغة المجتمع المسلم وتعكس روح المحبة بينهم وتضفي على المجتمع مسحة إلهية.



طاعة القيادة معيار الإيمان

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾

* * *

تفصيل القول:

١ - ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ﴾

أول سؤال: لماذا الحديث عن صفات المؤمنين مرة أخرى؟.

والسؤال الثاني: ما هي فاعلية هذه القيمة في قياس إيمان الناس؟.

أولًا: الأسرة الفاضلة التي يبدو أنها محور هذه السورة المباركة ليست هدفًا بذاتها، بل هي منطلق لبناء مجتمع إيماني فاضل. وهكذا يجري الحديث عنه بين الحين والآخر، إلا أن الكلام هنا يبدو يتناول جانبًا من المجتمع ذا أهمية قصوى وهي الطاعة للقيادة.

ثانيًا: في ثوابت الشريعة قد يتعود المؤمن عليها؛ مثل الصلاة والصيام. أما فيما يتصل بالمتغيرات التي تمس مصالح الناس مباشرة، وكثيرًا ما تضادها، فإن الطاعة ليست سهلة. من هنا تعتبر هذه الطاعة مقياسًا لمدى رسوخ الإيمان في النفس. أوَليس الإيمان وقر في القلب، تصدقه الأركان؟.

ثالثًا: حينما يتكرر ذكر الإيمان، فإن الثاني يعني إيمانًا حقًّا. فكأن السياق جاء هكذا، إنما المؤمنون هم الذين آمنوا حقًّا بالله ورسوله إيمانًا تصدقه مواقفهم، ومنها أنهم إذا كانوا مع رسوله في أمر جامع؛ مثل القتال والدفاع أو النهضة العمرانية وما أشبه.. فإنهم لن يتركوه إلا بعد الاستئذان.

وواضح أن بعض المؤمنين ظاهريًّا تراهم يتسللون لواذًا ويخالفون أمر الله سبحانه وأمر رسول الله ﷺ.

٢- ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

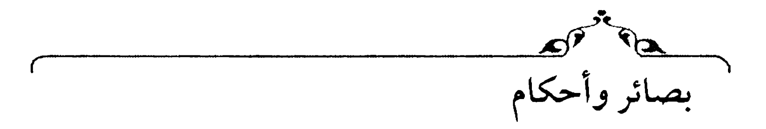
كأن الاستئذان ذاته منقصة مما استدعى الاستغفار. لماذا؟.

أولًا: حينما يكون الرسول أو أي قائد رباني يستخلفه حقًّا مشغولًا بأمر جامع في حرب أو سلم، كيف يجوز لمسلم أن يتركه وشأنه ويهتم بما يخصه من شأن، أو يكون شأنه أهم من قضايا الأمة؟.

لذلك فأصل الاستئذان خطأ. وإن كان لا يبلغ خطأ التسلل لواذًا من دون استئذان، والله سبحانه تفضل على مثل هؤلاء حينما أمر النبي ﷺ بالاستغفار لهم.

ثانيًا: من المفروض أن يكون للاستئذان سبب معقول، الذي عبر عنه السياق بقوله: ﴿لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ﴾ والرسول هو المفوض من قبل الله سبحانه ليأذن لمن شاء حسب تقييم الوضع. والرسول ﷺ يطبق أحكام الدين، ولكنه يلاحظ ظروف الناس الواقعية، لأنه رسول رب غفور رحيم. وهكذا دين الإسلام هو دين الرحمة والمغفرة.





بصائر وأحكام

* قد تصبح الطاعة في ثوابت الشريعة عادةً للمسلم، بينما الطاعة لله وللرسول (وللقيادة الربانية) التي قد تتعارض مع مصالح الفرد معيار دقيق لمدى الإيمان الحق، ومن ذلك عدم تقديم الشأن الخاص على الشأن العام.



طاعة الرسول أمان من الفتنة

﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) ﴾

* * *

تفصيل القول:

١ - ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾

يبدو هذه مرحلة متقدمة في الإيمان. كيف؟.

حينما يُغمر القلب بحب النبي ﷺ واحترامه، ينعكس ذلك على ملامح الوجه وأسلوب التعبير. وهكذا أمر الرب بأن يكون التعامل مع النبي ﷺ مختلفًا عن التعامل مع سائر الناس، بأن يكون باحترام بالغ يليق بمقامه.

٢- ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾

أولًا: لماذا استخدم السياق كلمة قد، التي إذا دخلت على صيغة المضارع أفادت الاحتمال؟.

لأن الله يعلم دائمًا، ولكنه حتى ولو اخْتُصِرَ علمه على بعض الأحايين كان يكفي رادعًا للبشر. أَوَيَكُونُ أمرًا سهلًا اطلاع جبار السماوات والأرض على معصية العبد؟! وقد جاء في الحديث الشريف المروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنَّ: «**مَنْ هَمَّ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يَعْمَلْهَا فَإِنَّهُ رُبَّمَا عَمِلَ الْعَبْدُ السَّيِّئَةَ فَيَرَاهُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَيَقُولُ وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَغْفِرُ لَكَ بَعْدَ ذَلِكَ أَبَدًا**»[1].

ثانيًا: التسلل لواذًا للهروب من الساحة تحت جنح الظلام أو باسم تبريرات مختلفة.

٣- ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

ما هي تلك الفتنة؟.

أولًا: من أعظم منافع الأمة عند طاعة الرسول وحدتهم. فإذا تراجعت الطاعة ابتليت بفتنة الصراع، وهي سوف تلهيهم عن أهدافهم، وتذهب ريح عزتهم وصيت قوتهم عند الأعداء، وهي تكون حالقة لدينهم، ومفسدة لأخلاقهم.

ثانيًا: الرسول رحمة الله لعباده، وطاعته أمان من العذاب، فإذا خالفوه عمهم عذاب أليم. ليس فقط لأنهم يتخلفون عن ركب

(١) المحاسن: ج ١، ص ١١٧.

الحضارة ويصيبهم التخلف ويحيط بهم الذل، وإنما أيضًا لأنهم سوف يجازون بذنوبهم في الدنيا قبل الآخرة.

ألم يقل ربنا سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[1].

* * *

بصائر وأحكام

* احترام الرسول ﷺ (ومن يمثله حقًّا) دليل إيمان المسلم، وكذلك الإخلاص في طاعته (وعدم التسلل عنه لواذًا) وطاعته أمان من الفتنة ومن العذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

» من أعظم منافع الأمة عند طاعة الرسول وحدتهم. فإذا تراجعت الطاعة ابتليت بفتنة الصراع، وهي سوف تلهيهم عن أهدافهم، وتذهب ريح عزتهم وصيت قوتهم عند الأعداء.

(١) سورة الأنفال، آية: ٣٣.

التقوى ميراث الإيمان

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ (٦٤) ﴾

***

تفصيل القول:

الآية الأخيرة من سور الذكر عادة قد تختصر بصائر السورة، أو تشير إلى أبرزها، فما هي بصائر هذه الآية؟.

أولًا: قدرة الله مهيمنة على الكائنات التي تخضع لمشيئته سبحانه.

ووعي هذه البصيرة تجعل القلب أقرب إلى التقوى. فما دامت السماوات والأرض خاضعة تمامًا لهيمنة الرب، وتدبيره ساعة بعد ساعة، فأين المؤمن لحكومته؟.

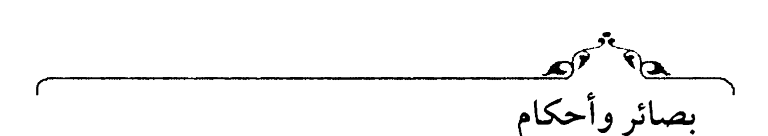
أوَليس التسليم للرب هو السبيل الوحيد للنجاة؟.

إن مالكية الرب لما في السماوات والأرض لا تعني فقط خالقيته، بل وأيضًا تدبيره الدائم لها. فمن خرج عن سلطان الرب فإنه يعرض نفسه لمواجهة كل ما في السماوات والأرض.

ثانيًا: وعلم الله سبحانه محيط بما يفعله البشر، وما يوسوس به صدره. وهكذا كان حقًّا علينا مراقبته في سرّ أسرارنا، وفي يوم القيامة ينتظرنا الحساب، الذي لا يمكن لأحد أن ينكر فعله هناك، حيث الذي يحاسب وينبِّئ الإنسان بعمله هو رب العزة الشاهد على كل شيء.

وهكذا لا يصلح الإنسان إلا إحساسه أولًا بمالكية الرب ما في السماوات والأرض، وعلمه بما يفعله، وأنه سوف يخبره بما فعل لأنه بكل شيء عليم.

* * *



بصائر وأحكام

* وعي قدرة الرب وهيمنته التامة يزيد القلب تقوىً ومراقبةً للرب في السر كما في العلن.